أبو المجد حرك

الإسراء والمعراج

دراسة موضوعية

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

الإسراء والمعراج

دراسة موضوعية



الناشر : **الدار المصرية اللبنانية**
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع: ٩٨٢٧ / ١٩٩٠
الترقيم الدولى: 9 - 10 - 5083 - 977.

الطبعة الأولى: ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١م
الطبعة الثانية : ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦م

أعـوذ بالله مـن الشـيطان الرجيـم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾

صدق الله العظيم

أعوذب بالله من الشيطان الرجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ
عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ (٥)
ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ
قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ
ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ (١١) أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣)
عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ (١٥) إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ
مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ
ٱلْكُبْرَىٰٓ (١٨)

« صدق الله العظيم »

★ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :ـــ

إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الْحَدِيثِ عَنِّى ، فَمَنْ قَالَ عَلَيَّ فَلْيَقُلْ حَقًّا أَوْ صِدْقاً ، وَمَنْ تَقَوَّلَ عَلَيَّ مَا لَم أَقُلْ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » .

صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

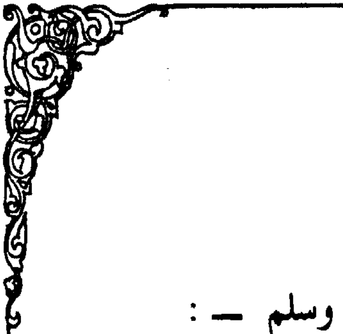
رواه أحمد والحاكم عن أبى قتادة وحسنه الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير) رقم ٢٦٨٤

★ وقال ـــ صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ حَدَّثَ عَنِّى بِحَدِيثٍ يرَى أَنَّهُ كَذِبٌ ، فَهُوَ أَحَدُ الكَاذِبِينَ »

صدق رسول الله صلى الله علية وسلم

رواه أحمد ومسلم وابن ماجه عن سمرة وهو فى (صحيح الجامع الصغير) للألبانى ٦١٩٩



★ ★ وقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ :

« إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ »

صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

رواه مالك وأحمد والشيخان وأبو داود والترمذى كلهم عن أبى هريرة ، وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير) رقم ٢٦٧٩

★ ★ وقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ :

« مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأ مَقْعَدَه مِنَ النَّار »

صدق رسول الله صلى الله علية وسلم

حديث صحيح متواتر ، رواه أكثر من ستين صحابيا رضى الله عنهم أجمعين

قضيـــة خطيـــرة

من أكثر الكتب انتشارا عن الإسراء والمعراج كتاب صغير الحجم ، منسوب إلى ترجمان القرآن الكريم ــ رضى الله عنه ــ الصحابى الجليل عبد الله بن عباس ، وهو منه براء ، والكتاب ملىء بالمبالغات المثيرة والتصويرات الباهرة ، ولذلك كان انتشاره الواسع بين عوامِّ المسلمين الذين تعلقوا به ، وأخذوا بما فيه من تلفيقات ، حتى ابتدع بعضهم طرقا فى قراءته فى البيوت فى شهر رجب من كل عام .

واجتهد تجار الطباعة الصفراء فى طباعته ، وجنى الأرباح من توزيعه دون وازع من دين أو خلق ، وساهم فى طباعته ونشره والدعوة إلى قراءته أعداء الإسلام ، نظرا لتناقض ما به من مبالغات تتجافى مع المنطق ، وتصادمها مع المعطيات العلمية الحديثة أحيانا ، مما يحدث أسوأ الأثر فى نفوس الشباب ، ويوهم من لاعلم له منهم بانفصام كاذب بين العلم والإيمان ، أو يربط بغير رابط ما بين الدين والخرافة ، أما من

له علم منهم بالتخريج والتحقيق فليس أسهل عليه من اكتشاف الكذب الظاهر فى « معـراج ابـن عبـاس » وقد نص علماء الحديث على بطلانه ، وعلى تلفيقه من عدة أحاديث باطلة لا أصل لها ولا سند ، وتطعيمها بأجزاء مبتسرة من أحاديث صحيحة وسط ركام من الاختلافات والافتراءات .

ولعل القراء يذكرون كيف أشاد أحد الكتاب المسيحيين من سنوات ــ وهو الكاتب المصرى لويس عوض ــ فى جريدة الأهرام بمعراج ابن عباس على أنه قطعة أدبية نفيسة ونادرة من التراث يجب الاعتناء بها ، وكيف رد عليه العلماء والكتاب ، وأشاروا إلى سوء قصده التخريبى وإلى المواقف المشبوهة السابقة له ضد الإسلام والمسلمين .

وكان من أول ما دفعنى إلى كتابة هذا الكتاب مالاحظته إبان تواجدى فى جمهورية الجزائر الشقيقة أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات من انتشار هذا الكتاب هناك على نطاق واسع أيضا ، وقد أشار بعض الكتاب الجزائريين فى صحفهم إلى خطورة هذا الحديث الموضوع ، وطالبوا بتنقية كتب السنة من مثل هذه الخيالات ، التى لا تستند إلى دليل نقلى أو شرعى مقبول ، ولا تثبت فى ميزان العقل أمام قواعد النقد العلمى من منظور إسلامى صحيح .

ثم قرأت فى (فقه السيرة) للدكتور محمد سعيد رمضان البوطى تحذير صاحبه من هذا المعراج المنسوب زورا لابن عباس ــ رضى الله عنه ــ قال : « احذر وأنت تبحث عن قصة الإسراء والمعراج أن تركن إلى ما يسمى بـ (معراج ابن عباس) فهو كتاب ملفق من مجموعة أحاديث باطلة لا أصل لها ولا سند ، وقد شاء ذاك الذى فعل فَعْلته الشنيعة هذه أن يلصق هذه الأكاذيب بابن عباس ــ رضى الله عنه ــ وقد علم كل مثقف بل كل إنسان عاقل أن ابن عباس برىء منه ، وأنه لم يؤلف أى كتاب فى معراج الرسول ، بل وما ظهرت حركة التأليف إلا فى أواخر عهد الأمويين .

ولما وقف دعاة السوء على هذا الكتاب ووجدوا فيه من الأكاذيب المنسوبة إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ما يكفل زعزعة إيمان الكثيرين من الناس ، راحوا يروجون له ويدعون إليه ، مع أنهم يعلمون قبل سائر الناس أنه كتاب مكذوب على ابن عباس وأن أحاديثه كلها باطلة [1]، ولكن الكذب سرعان ماينقلب عندهم صحيحا إذاكان فيه مايشوش أفكار المسلمين ويلبس عليهم دينهم » [2].

---

(١) الحقيقة أن الكتاب مطعم ببعض العبارات المقتبسة من أحاديث صحيحة ، ولكن السياق كله باطل على النسق المطبوع به المعراج المذكور ، وهذا أخطر ، لما يوقع فيه القارىء من التلبيس والتغرير بسبب هذه العبارات الصحيحة على قلتها .

(٢) « فقه السيرة » للبوطى ــ دار الفكر ــ طـ ٧ ــ صفحة ١٢١ / ١٢٢ .

ثم اطلعت على قصة الإسراء والمعراج للشيخ الغيطى طبعة الحلبى بالأزهر ، فوجدته كذلك مشتملاً على خيالات كثيرة غير محققة ، رغم سعة انتشاره وإقبال الناس عليه .

وزادنى هذا وذاك ، إلى جانب سيل الخيالات السنوى على ألسنة المتحدثين والكتّاب فى مناسبة الإسراء والمعراج من كل عام ، زادنى ذلك كله حماسا ورغبة فى دراسة روايات وأحاديث الإسراء والمعراج ككل ،راجيا من المولى — عز وجل — أن يوفقنى إلى اتباع المنهج الصائب فى التعامل مع هذه الروايات ، وأن يهىء لنا سبيلا إلى حقيقتها ، أو إلى ما يصح فيها من حقائق دون ما دُسَّ فيها من خيالات باطلة .

وفى الحقيقة فإن الفكر الإسلامى قد عانى طويلا — ولا يزال إلى حد كبير يعانى — من الأفكار الدخيلة التى تسربت بحسن نية أو بسوئها ، إلى العديد من المتون الإسلامية ، وجاهد العلماء فى القديم والحديث لدحضها ، ولتخليص الأصول الإسلامية الصحيحة مما يعلق بها من شوائب دخيلة تجلب أشد المضار على حركة الدعوة الإسلامية عبر العصور ، بل على مفاهيم المسلمين الدينية التى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لإرسائها على أساس متين من التوحيد والتنزيه لله الواحد الأحد الفرد الصمد جل جلاله .

ويشهد « معراج ابن عباس » وغيره من الموضوعات فى

قصة الإسراء والمعراج ، أنها كانت نموذجا مثاليا فى هذا المجال ، إذ إن هذه الحادثة التى لم يذكرها القرآن الكريم إلا مرورا عابرا ، كانت فرصة سانحة لوضع الأحاديث المفتراة ، والإضافات المستفيضة ، والإسرائيليات ؛ لما تثيره المعجزة من خيال ، ومن رغبة فى المبالغة والمغالاة .

يقول الدكتور على حسن عبد القادر فى مقال بمجلة (منبر الإسلام) بعنوان : (المعراج وأثره فى الأدب الرمزى) :

« من الواضح أن تطور هذه القصة من بساطتها الأولى الموجزة فى القرآن الكريم إلى هذا التفصيل الواسع والقصص المفصل يرجع إلى هذه الشروح والتفاسير التى تناولت هذه القصة ، وإلى تلك التأويلات التى أولت بها ، وإلى محاولة الجمع بين الروايات المختلفة وتوحيدها فى وحدة منسقة ، ولقد لعب الخيال دوره وأضاف إليها ثروة غنية من الحوادث والوقائع والتمثيلات التى قد تضيق بها هذه الرحلة ، فضلا عما زُجَّ به فيها من إشراقية وزرادشتية وأفلاطونية حديثة ، وفوق هذا كله الصياغة الفنية والمجازات والاستعارات التى صنعت بها هذه القصة وما أضفته عليها من فن وتصوير وتشبيه رائع ، وكل هذا من أجل إرضاء العامة بقصة كاملة لإشباع فضولهم من الناحية الفنية أكثر من الناحية الدينية » إلى إن يقول :

« لا نحاول أن نتتبع ــ فى هذا البيان ــ تطور هذه

القصة فى رواياتها المختلفة أو نحقق عناصرها ومادتها ، ولكنا نكتفى بفرض أن هذه الروايات المختلفة فى وقائعها قد اتخذت لها فى وقت مبكر شكلا محددا استقرت عنده وبقيت بعد ذلك للأجيال التالية فى هذا الوضع المستقر ، وكان هذا على التحديد فى القرن الثالث الهجرى كما نرى ذلك عند الإمام الطبرى فى تفسيره والتى جمع فيها الروايات المختلفة ، وما جاء بعد ذلك لا يعدو أن يكون شرحا عليها ، أو تفسيرا رمزيا أو جمعا لبعض الروايات المضطربة » (١)

وكان التطوع بالوضع فى أحاديث الإسراء والمعراج ، أو فى غيرها من الأحاديث بشكل عام يتم بدافع تربوى حينا ، يقصد منه زيادة ترهيب الناس من عذاب الآخرة وأهوال الجحيم ، أو ترغيبهم فى النعيم المقيم بالجنة .

وأحيانا أخرى كانت تضاف الزيادات بقصد إضفاء المزيد من التكريم على شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الغنى عن ذلك بما اختصه الله ــ تعالى ــ به من فضل عظيم ،كما فى مثل قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾(٢)

---

(١) مجلة (منبر الإسلام) عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر ــ عدد رجب ١٣٨٧ هـ (أكتوبر ١٩٦٧ م) ــ الملحق ــ ص ١١٩

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٥٦ .

وأحيانا أخرى كانت تضاف الإضافات بيد أعداء الدين الحق ، أو مدعى الإسلام من اليهود والشعوبيين والموتورين ، ممن ملأهم الحقد على خير أمة أخرجت للناس ، والحسرة على مجدهم السالف ، أو الطمع فى عز دنيوى تالف .

إن حادثة الإسراء والمعراج التى لم يقف القرآن الكريم عندها طويلا لأسباب سنحاول فهمها ، لم يكن قد ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته سوى غيض قليل من الأحاديث عنها ، ولكن هذا الغيض ما لبث عبر القرون أن تحول إلى فيض زاخر يحمل بين جنباته كل غث وسمين .

يدلنا على ذلك أن أول كتاب وضع فى السيرة النبوية الشريفة لا يذكر سوى عدد قليل من الأحاديث المتعلقة بحادثة الإسراء والمعراج ، وهو كتاب (السيرة) لمحمد بن إسحاق (٨٥ هـ / ١٥١ هـ) (١)

---

(١) يعتبر كتابه أقدم كتاب معروف فى السيرة ، وهو حصيلة جمع كتابين له : الأول (كتاب المبتدأ وقصص الأنبياء) ، والثانى (كتاب المغازى) . وكتاب (السيرة) كتاب جامع ملىء بالأحاديث النبوية الشريفة عن الثقات من الرواة وغيرهم ، حيث إن شروط الضبط والتحقيق والجرح والتعديل التى وطدها أهل الحديث فيما بعد لم تكن معروفة لدى صاحبه . وقد فقدت السيرة الأصلية لابن إسحاق ، وأمكن جمعها مما نقله ابن هشام عنها ــ فقد نقل أكثرها ــ وكذلك مما نقله ابن جرير الطبرى والواقدى وغيرهما ، وهى الآن مطبوعة متداولة .

ولكن الأحاديث ازداد عددها بعد ذلك واستمرت فى الزيادة ، حتى أسهب بعضها فى الوصف ورسم التفاصيل الدقيقة بما لا يطمئن إليه قلب باحث مدقق ، واستراح البعض مع ذلك إلى القول بصحة أحاديث الإسراء والمعراج كلها ، واجتهدوا فى التلفيق بين متناقضاتها ، ووجدنا من يصرح بأن الإسراء والمعراج قد وقع عددا من المرات يساوى عدد الأحاديث المرويّة فى ذلك ، وعليه ذهب الحاتمى الصوفى والشيخ عبد الوهاب الشعرانى إلى أن الاسراء وقع له صلى الله عليه وسلم ثلاثين مرة ، أو أن إسراءاته صلى الله عليه وسلم كانت أربعا وثلاثين : واحد بجسمه الشريف ، والباقي بروحه المطهرة : حكاه الشيخ على برهان الدين الحلبي المتوفى سنة ١٠٤٤ هـ فى كتابه (إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون) المشهور (بالسيرة الحلبية) [١] . ولا يزال حتى فى عصرنا الحالى من يقول بشيء من ذلك ، كالأستاذ محمد محمد السباعى الديب الذى كتب فى الاستدلال على أن « المعاريج التى اجتازها صلى الله عليه وسلم عشرة : سبعة إلى السموات ، وواحد إلى سدرة المنتهى ، وواحد إلى المستوى الذى سمع فيه صريف الأقلام فى تصاريف الأقدار ، وواحد إلى عرش الرحمن » [٢].

(١) انظر : (السيرة الحلبية) طباعة المطبعة الأزهرية ــ القاهرة ــ الجزء الأول ــ صفحة ٤٠٤ .

(٢) مجلة (منبر الإسلام) ــ العدد ٧ ــ السنة ٢٥ ــ رجب ١٣٨٧ هـ (أكتوبر ١٩٦٧) ــ الملحق : صفحة ٣٣ .

وهذه كلها أقوال تحتاج إلى نقل صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عن أحد غيره ، ولا يكتفى فيها بالإمكانية والجواز ؛ لأن مجرد الجواز لا يفيد علما كما هو معروف .

فى الواقع فإن ما أصاب الأحاديث النبوية الخاصة بالإسراء والمعراج هو جزء من كل ، وانعكاس لما آلت إليه الحال فى عصور الوضع الأولى بالنسبة للسنة النبوية الشريفة .

فقد ابتدأ السيل العارم من الأحاديث الموضوعة منذ محنة الفتنة الكبرى ، ومقتل عثمان بن عفان ــ رضى الله عنه ــ وذلك حين أخذ كل فريق فى وضع الأحاديث التى تعضد وتساند وجهة نظره ، أو تضعف موقف خصمه ، واجتهد أعداء الإسلام فى وضع أحاديث الفرقة والبلبلة ، إضراما للنار المستعرة بين المسلمين ، وإمعانا فى تمزيقهم ، مستغلين فوضي الأحداث ، فقد كانت مناسبة الفتنة والاختصام فرصة مواتية ومجالا خصبا للتشويش والمكيدة .

والحق أن الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بدأ قبل الفتنة ، ولكنه لم يصبح ظاهرة متفشية إلا بعدها ، بل لعلنا لانجانب الحقيقة إذا قلنا : إن الكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم قد بدأ فى حياته ، ويستدل على ذلك بما ذكره ابن سعد فى الطبقات والطبرانى عن المنقع بن حصين التميمى قال : أتيت النبى بصدقة إبلنا فأمر بها فقبضت ، فقلت : إن

فيها ناقتين لك ، فأمر بعزل الهدية عن الصدقة ، فمكث أياما ، وخاض الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم باعث خالد بن الوليد إلى رقيق مضر فَمُصْدِقُهُمْ ــ أى : آخذ الصدقة منهم ــ فقلت : والله ما عند أهلنا من مال ، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت له : إن الناس قد خاضوا فى كذا وكذا ، فرفع النبى يديه حتى نظرت إلى بياض إبطه ، وقال : اللهم لا أُحِلُّ لهم أن يكذبوا عليَّ [1] .

وكذب البعض عليه صلى الله عليه وسلم فى حياته حين أشاعوا أنه طلق نساءه أمهات المؤمنين ــ رضوان الله عليهن .

وقال عبد الله بن بريدة ــ فيما كتبه ابن حزم الظاهرى فى (الإحكام فى أصول الأحكام) [2] :

« قال ابن الحصيب الأسلمى : كان حى من بنى ليث على ميلين من المدينة فجاءهم رجل وعليه حلة ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كسانى هذه الحلة ، وأمرنى أن أحكم فى دمائكم وأموالكم بما أرى ، وكان قد خطب منهم امرأة فى الجاهلية فلم يزوجوه ، فانطلق حتى نزل على تلك المرأة ،

---

(١) انظر الحديثين فى (كنز العمال) ــ الجزء العاشر ــ برقمى ٢٩٤٠ و ٢٩٤١ . مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ الطبعة الثانية ــ ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م .

(٢) (الإحكام فى أصول الأحكام) ــ جـ ٢ ص ٥٨٢ / (أضواء على السنة المحمدية) محمود أبورية ــ ط ٤ ــ ص ٦٥ ــ دار المعارف بمصر ــ ١٩٧٦ م .

فأرسلوا إلى رسول الله ، فقال : كذب عدو الله ، ثم أرسل رجلا فقال : إن وجدته حيا ــ ولا أراك تجده ــ فاضرب عنقه ، وإن وجدته ميتا فحرقه بالنار .

وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم اجترأ الناس أكثر ، ومما يرويه مسلم أن بشير بن كعب العدوى قد جاء إلى ابن عباس فجعل يحدث ويقول : قال رسول الله ، قال رسول الله ، قال : فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه ولا ينظر إليه ، فقال : يابن عباس مالى أراك لا تسمع لحديثى ؟ أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تسمع ؟ قال ابن عباس : إنا كنا مدة إذا سمعنا رجلا يقول : قال رسول الله ، ابتدرته أبصارنا ، وأصغينا بآذاننا ، فلما ركب الناس الصعبة والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف .

وفى عبارة ابن عباس (ركب الناس الصعبة والذلول) إشعار بأن الوضع كان قد بدأ فى الشيوع على عهده ، ومما لاشك فيه أنه ازداد بعد عهد عبد الله بن عباس ، وذلك بدوافع مختلفة ، تبدأ من الجهل بالدين ــ الذى يحرم الكذب ويجعل من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم كبيرة من الكبائر تبوىء لصاحبها مقعده من النار ــ ولا تنتهى بالنفاق ، أو الاسترزاق ، وممالأة السلطان ، أو الانصياع للعصبيات المذهبية أو القبلية الجاهلية كما سيأتى تفصيله إن شاء الله .

ولكن الفتنة الكبرى حين أطلت برأسها كانت أول ما فتح الباب على مصراعيه ــ وكان مواربا ــ فدخل منه الكذابون وواضعو الأحاديث المزورة المدسوسة . يقول ابن سيرين : « لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا : سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم ، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم » [1] .

وقد جمع الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر فى كتابه (السنة النبوية وعلومها) ستة أسباب رئيسية للوضع فى الحديث نختصرها كالآتى : [2]

١ ــ التعصب السياسى : ومنه تلك الأحاديث فى فضائل أئمة الفرق السياسية ، ورؤساء الأحزاب ، واشتهر فى ذلك الشيعة والرافضة كلهم حتى أن حماد بن مسلم [3] يقول عن شيخ لهم : إنه قال : كنا إذا اجتمعنا فاستحسنا شيئا جعلناه حديثا .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه من طريق عاصم الأحول ــ المقدمة ــ حديث رقم ٢٥ ــ صفحة ٧١ ــ طبعة المكتب الثقافى بالقاهرة .

(٢) انظر تفصيل هذه الأسباب فى الفصل الثانى من الكتاب المذكور من صفحة ٧٩ إلى صفحة ٩٠

(٣) لعله يقصد حماد بن سلمة بن دينار البصرى ، أحد رجال الحديث المشهورين ، وكان شديدا على المبتدعة .

وقد قوبلت أحاديث الشيعة فى الغلو فى على ـــ كرم الله وجهه ـــ بأحاديث مضادة فى الغلو فى الخلفاء الراشدين ـــ رضى الله عنهم ـــ وهكذا .

٢ ـــ التعصب العنصرى : كالأحاديث الموضوعة فى فضائل بعض القبائل أو الأماكن والبلدان .

٣ ـــ الزندقة : وفيهم روى العقيلى بسنده إلى حماد بن زيد قال : وضعت الزنادقة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة عشر ألف حديث ، منهم عبد الكريم بن أبى العوجاء الذى قتل وصلب فى زمن المهدى . قال ابن عدى : لما أخذ ليضرب عنقه قال : وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال وأحلل الحرام .

٤ ـــ القصاصون : وهم البارعون فى استمالة قلوب العامة بالمبالغات والخيالات والمناكير والغرائب والأكاذيب ، فالواحد منهم مثلا ـــ على حد قول ابن قتيبة فى (تأويل مختلف الحديث) ـــ : « إذا ذكر الجنة قال : فيها الحوراء من مسك أو زعفران ، وعجيزتها ميل فى ميل ، ويبوىء الله ـــ تعالي ـــ وليه قصرا من لؤلؤة بيضاء فيه سبعون ألف مقصورة ، فى كل مقصورة سبعون ألف قبة .. فلا يزال هكذا فى سبعين ألف كذا وسبعين ألف كذا كأنه يرى أنه لايجوز أن يكون العدد فوق السبعين ولا دونها »

٥ ــ الخلافات الفقهية والكلامية : فى تأييد المذاهب المختلفة بالأدلة الباطلة ، كما حدث فى جملة من أحاديث محنة القول بخلق القرآن وغيرها .

٦ ــ الجهل بالدين مع الرغبة فى الخير : وذلك من شيم بعض الزهاد الذين ساءهم ميل الناس إلى الدنيا وغفلتهم عن الآخرة ، قيل لأحدهم : ما هذه الرقائق التى تحدث بها ؟ قال : وضعناها لنرقق بها قلوب العامة ، كما وضعوا أحاديث فى فضائل القرآن الكريم سورة سورة لتحبيب الناس فى الإقبال عليه . سئل أحدهم عن ذلك ــ وهو أبو عصمة نوح بن أبى مريم ــ فقال : إنى رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن الكريم واشتغلوا بفقه أبى حنيفة ومغازى ابن إسحاق فوضعت هذا الحديث حسبة .

وخطورة هؤلاء أفدح لما يشهد لهم به الناس من الصلاح والزهد فيقبلون عليهم ويصدقونهم .

وهكذا تزايدت الأحاديث الموضوعة بتزايد الأسباب والمبررات ، حتى أن الإمام البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ــ رحمه الله ــ حين شرع فى تدوين صحيحه وجد أمامه جبلا من الأحاديث قوامه ستمائة ألف حديث متداول ، لم يضمن صحيحه منها سوى أربعة آلاف حديث ، رغم ما ورد عنه من قوله : « أحفظ مائة ألف حديث صحيح ، ومائتى ألف

حديث غير صحيح »[1]. وكذلك الإمام مسلم فقد ورد قوله : « صنَّفت هذا المسند الصحيح من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة » .[2] وجملة ما فى صحيح مسلم بإسقاط المكرر نحو أربعة آلاف حديث .

وهذان الكتابان الجليلان ، وإن لم يستوعبا جميع الحديث الصحيح ، قد تضمنا أصحه وأهداه ، وهما على قمة كتب الحديث على الإطلاق ، وأكثرها قبولا وتوقيرا لدى الأمة ، حتى قيل فيهما : « إن الحديث إذا أخرجه الشيخان أو أحدهما فقد جاوز القنطرة ، ودخل فى طريق الصحة والسلامة » .[3] وما ذلك إلا لما حرص عليه الشيخان من اتباع منهج علمى دقيق ، واشتراطهم شروطا حازمة فى قبول الحديث ، فكان عملهما ــ رحمهما الله ــ صيانة للسنة الصحيحة من الضياع ، ووقاية لها من أباطيل الضعفاء والوضاع ، فجزاهما الله عن ذلك كله خير الجزاء .

إن من فضل الله ــ سبحانه ــ على الأمة الإسلامية أن حفظ لها القرآن نقيا لا تشوبه شائبة ، بوعد الله القائل :

---

(١) (السنة النبوية وعلومها) د . أحمد عمر هاشم ــ دار الكتاب الإسلامى ــ القاهرة ــ ١٩٨٥ م ــ ص ١٦٨ .

(٢) المصدر السابق : صفحة ٢٠٥ .

(٣) قاله العلامة محمد ناصر الألبانى فى مقدمة (شرح العقيدة الطحاوية) ــ المكتب الإسلامى ــ بيروت ــ ط ٨ ــ ١٩٨٤ م ص ٢٨ .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [1] سبحانه لا يخلف الميعاد .

ثم قيض لها من أبنائها من يقومون بالمهمة الصعبة فى فضح المدسوس على أحاديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بكل ما فى وسعهم من وسائل ، وبمنهجية علمية دقيقة ، حتى أسسوا علما لم يسبقهم إليه أحد من الأمم قبلهم ، ولا استطاعه أحد بعدهم ، وهو علم (مصطلح الحديث) القائم على قواعد الجرح والتعديل ومعرفة الرجال [2] وبالتالى تصنيفهم حسب درجاتهم من الصدق أو الكذب ، أو الورع ، أو اتباع البدع ، أو قلة الدين ، أو حدة الذاكرة ، أو غلبة النسيان .

والطريق مع ذلك لا يزال ممتدا ، والحاجة إلى سبره لا تزال قائمة . هذه الحاجة التى تحتمها كثرة الخرافات والأباطيل التى تنسب زورا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إلى صحابته ـــ رضوان الله عليهم ـــ أو أعلام التابعين ، أو الصالحين والأتقياء .

---

(١) سورة الحجر : الآية ٩ .

(٢) أول ما يعرف من كتب التصنيف فى ذلك كتاب (معرفة الرجال) للإمام يحيى بن معين المتوفى سنة ٢٣٣ هـ ، وكتاب (الضعفاء والمتروكين) للإمام أحمد بن شعيب النسائى المتوفى سنة ٣١٣ هـ ، وكتاب (الجرح والتعديل) لعبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى المتوفى سنة ٣٢٧ هـ ، و (الضعفاء) للبخارى ، و (الكامل) للجرجانى المتوفى سنة ٣٦٥ هـ .

إن الدعوة ــ إذن ــ إلى مراجعة المنقولات مراجعة علمية وموضوعية قبل نقلها لا تزال قائمة ، وإن الأمر ليستدعى بالضرورة مساهمات جماعية فى ذلك تختصر الطريق إلى الهدف المنشود ، فالمبادرات الفردية تظل قاصرة ، وقد لا تقوم إلا وعاصفة الاعتراضات والاتهامات من حولها تثنيها عن مواصلة العمل .

وفى الحقيقة لا أعجز من ترك هذه المهمة الخطيرة بعد أن وضع السابقون قواعد إجرائها وسبل إنجازها فى منهجية علمية صارمة ، وذكروا العلامات التى يكتشف بها الوضع فى سند الحديث ، والعلامات التى يكتشف بها الوضع من متنه ونختصرها هنا عن كتاب (السنة النبوية وعلومها) للدكتور أحمد عمر هاشم ، فنقول : [1] .

* أولاً علامات الوضع فى السند ، وأهمها :

١ ــ أن يعرف راوى الحديث بالكذب ، وينفرد بروايته .

٢ ــ أن يقر بوضعه .

٣ ــ أن توجد قرينة تقوم مقام الاعتراف بالوضع ، كأن

(١) انظر تفصيل ذلك فى الكتاب المذكور من صفحة ٩٤ إلى ٩٨ .

لايثبت اللقاء بمن يروى أنه سمع عنه ، أو يكون قد ولد بعد وفاته ، أو لم يدخل المكان الذى صرح بالسماع فيه . يقول سفيان الثورى : « لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ » .

معرفة حال الراوى وبواعثه النفسية ، مثل ما وقع من سعد بن ظريف حين جاء ابنه من الكتاب يبكى ، فقال : مالك ؟ قال : ضربنى المعلم . قال : لأخزينهم اليوم ، حدثنى عكرمة عن ابن عباس مرفوعا : « معلمو صبيانكم شراركم ، أقلهم رحمة لليتيم ، وأغلظهم على المسكين » .

* ثانياً علامات الوضع فى المتن وأهمها :

١ ـــ ركاكة المعنى واللفظ ، يعرفها من خَبِرَ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلوبه . قال الربيع بن خيثم [١]: « إن للحديث ضوءا كضوء النهار تعرفه ، وظلمة كظلمة الليل تنكره » .

٢ ـــ فساد المعنى بمخالفة بدهيات العقول أو القواعد العامة فى الأخلاق والآداب أو العلوم أو التوحيد وتنزيه الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ أو مخالفة سنن الله فى كونه وفى الإنسان . يقول ابن الجوزى : « ما أحسن قول القائل : إذا رأيت

(١) نقلا عن (الباعث الحثيث) لابن كثير ـــ صفحة ٨٢ .

الحديث يباين المعقول أو يخالف المنقول أو يناقض الأصول ، فاعلم أنه موضوع » .

٣ ــ مخالفته للقرآن الكريم ، أو السنة المتواترة ، أو الإجماع القطعى ، إلا مع إمكان الجمع فلا يحكم بوضعه .

٤ ــ مخالفته للوقائع التاريخية المقطوع بصحتها .

٥ ــ صدور الحديث من راو تأييداً لمذهبه الفقهى أو الكلامى أو المتعصبين من الروافض وغيرهم .

٦ ــ الإفراط فى الثواب العظيم على العمل الصغير ، والمبالغة فى الوعيد الشديد على الأمر الحقير ، وهذا شأن موضوعات القصاصين .

٧ ــ أن يتضمن الحديث أمراً من شأنه أن تتوفر الدواعى على نقله بوجود جمع غفير من الصحابة ثم لا يشتهر ولا يرويه غير واحد منهم .

٨ ــ ما يصرح بتكذيب جمع المتواتر .

نريد أن نقول : إن حادثة الإسراء والمعراج جديرة بإجراء مراجعة دقيقة لأحاديثها الكثيرة على ضوء نفس القواعد المقررة السابقة ، مع إخلاص النية وتصحيح العزم ، وإنى لأرجو الله ــ سبحانه وتعالى ــ أن يجعل من الفصول التالية مناسبة لاثارة حوار علمى نزيه ، تُنَقَّى فى ختامه سيرة الرحلة المباركة من الدسائس والموضوعات ، وبجهود مشتركة من السادة العلماء والفقهاء من أهل الاختصاص والعلم والورع وبالله وحده التوفيق .

في معنى التدلي

من أبرز مقتضيات العقيدة الإسلامية تنزيه الذات الإلهية عن المكان والجهة والحدود ، والترفع عن أى حديث يكون من إيحاءاته شيء من معانى التشبيه أو التجسيد .. تعالى الله ـــ سبحانه ـــ عن ذلك علوّاً كبيراً ، ولكننا نصطدم فى روايات الإسراء والمعراج بما يتعارض ظاهره مع هذا التنزيه الواجب ، كمثال ما قيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ . فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ (١) .

روى البخارى فى صحيحه عن شريك بن عبد الله عن أنس بن مالك قوله : « ودنا الجبار رب العزة فتدلى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى » . وهذا من رواية طويلة مشهورة ، رواها مسلم فى (صحيحه) ثم قال نحن شريك : فقدم وأخر وزاد ونقص . قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره : « وهو كما قال مسلم ، فإن شريك بن عبد الله بن أبى نمر

(١) سورة النجم : الآيات ٨ ـــ ١٠ .

اضطرب فى هذا الحديث وساء حفظه ، ولم يضبطه »[1] . ثم نقل ابن كثير قول الحافظ البيهقى : « فى حديث شريك زيادة تفرد بها على مذهب من زعم أنه صلى الله عليه وسلم رأى الله — عز وجل — يعنى قوله : (ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى) وقول عائشة وابن مسعود وأبى هريرة فى حملهم هذه الآيات على رؤيته « جبريل أصح » قال ابن كثير : « وهذا الذى قاله البيهقى رحمه الله فى هذه المسألة هو الحق » .

ونقل الحافظ ابن حجر العسقلانى فى (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) قول ابن حزم : « لم نجد للبخارى ومسلم فى كتابيهما شيئاً لا يحتمل مخرجا ، إلا حديثين ، ثم غلبه فى تخريجه الوهم ، مع إتقانهما وصحة معرفتهما .. فذكر هذا الحديث ، وقال : فيه ألفاظ معجمة ، والآفة من شريك »[2] ونقل قول عبدالحق فى (الجمع بين الصحيحين) : « زاد فيه — يعنى شريكا — زيادة مجهولة ، وأتى فيه بألفاظ غير معروفة ، وقد روى الإسراء جماعة من الحفاظ ، فلم يأت أحد منهم بما أتى به شريك ، وشريك ليس بالحافظ »[3] .

---

(١) تفسير ابن كثير — دار الأندلس — بيروت — ط ٣ — ١٩٨١ — ج ٤ — صفحة ٢٤٠ .

(٢) (الإسراء والمعراج) جرده ورتب أحاديثه من (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) عبد الله حجاج — مكتبة التراث الإسلامى — القاهرة — ١٩٨٤ — ص ٧١ . ووجدت موضعه فى (الفتح) فى كتاب التوحيد — الجزء ١٣ — ص ٤٩٣ .

(٣) المصدر السابق : نفس الصفحة .

إن كون أحاديث صحيح البخارى فى أعلى درجات الصحة ، يتلوها أحاديث مسلم فى صحيحه ، لم يمنع العلماء من نقد رواية شريك ، واتهامه بسوء الحفظ ، وليس فى هذا جواز مطلق لنقد أية رواية فيهما ، كيفما اتفق اتباعا للهوى .. بل إن روايات الصحيحين التى انتقدها بعض العلماء هى روايات معدودة معينة ، ولا نتعداها إلى نقد غيرها كلما زينت لنا أهواؤنا أمرا . ثم نعود إلى رواية شريك بن عبد الله :

قال النووى : وقع فى رواية شريك أوهام أنكرها العلماء

وقال أبو سليمان الخطابى ــ فيما ذكره الحافظ ابن حجر فى (الفتح) ــ : « ليس فى هذا الكتاب ــ يعنى صحيح البخارى ــ حديث أشنع ظاهراً ، ولا أشنع مذاقا من هذا الفصل ، فإنه يقتضى تحديد المسافة بين أحد المذكورين وبين الآخر ، وتمييز مكان كل واحد منهما ، هذا إلى ما فى التدلى من التشبيه والتمثيل له بالشيء الذى تعلق من فوق إلى أسفل »[1].

وخروجا من هذه الإشكالات يجنح الخطابى مرة إلى اعتبار الحديث حكاية عن رؤية منامية ، لقول شريك فى أوله : (وهو نائم) ، وقوله فى آخره : (استيقظ) فيقول :

---

(١) (صحيح مسلم بشرح النووى) طبعة المكتب الثقافى ــ القاهرة ــ الجزء الأول ــ صفحة ٣٨٨ .

« وبعض الرؤيا مثل يضرب ليتأول على الوجه الذى يجب أن يصرفه إليه معنى التعبير فى مثله ، وبعض الرؤيا لا يحتاج إلى ذلك ، بل يأتى كالمشاهدة »[1].

ويجنح مرة أخرى إلى رفع الحديث من أصله بأن : القصة بطولها إنما هى حكاية يحكيها أنس من تلقاء نفسه ، لم يعزها إلى النبى صلى الله عليه وسلم ولا نقلها عنه ، ولا أضافها إلى قوله . فحاصل الأمر فى النقل أنها من جهة الراوى : إما من أنس وإما من شريك ، فإنه كثير التفرد بمناكير الألفاظ التى لا يتابعه عليها سائر الرواة[1].

ولكن الحافظ ابن حجر بعد أن استبعد أن تكون هذه الرواية من تلقاء أحد الراويين (لأن ما اشتملت عليه لا يقال بالرأى) ينقل قول الخطابى مرة أخرى فى أن : الذى وقع فى هذه الرواية من نسبة التدلى للجبار — عز وجل — مخالف لعامة السلف والعلماء وأهل التفسير ، من تقدم منهم ومن تأخر . قال : « والذى قيل فيه ثلاثة أقوال » :

أحدها : أنه دنا جبريل من محمد صلى الله عليه وسلم

---

(١) (الإسراء والمعراج) لابن حجر العسقلانى — مصدر سابق — صفحة ٦٧ . — وهو فى (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) — ط . الريان — الجزء ١٣ كتاب التوحيد — ص ٤٩٢ .

فتدلى : أى : تقرب منه . وقيل : هو على التقديم والتأخير ، أى : تدلى فلانا ، لأن التدلى بسبب الدنو .

الثانى : تدلى جبريل بعد الانتصاب والارتفاع ، حتى رآه متدليا كما رآه مرتفعا ، وذلك من آيات الله ، حيث أقدره على أن يتدلى فى الهواء من غير اعتماد على شىء ولا تمسك بشىء .

الثالث : دنا جبريل فتدلى محمد صلى الله عليه وسلم ساجداً لربه تعالى ، شكراً على ما أعطاه » .

قال الخطابى : « وقد روى هذا الحديث عن أنس من غير طريق شريك ، فلم يذكر فيه هذه الألفاظ الشنيعة ، وذلك مما يقوى الظن أنها صادرة من جهة شريك » . ثم قال : « وفى هذا الحديث لفظة أخرى تفرد بها شريك أيضا ، لم يذكرها غيره ، وهى قوله : [فَعَلَا به ـ يعنى جبريل ـ إلى الجبار تعالى ، فقال وهو مكانه : يارب خفف عنا] .. والمكان لا يضاف إلى الله ـ تعالى ـ إنما هو مكان النبى صلى الله عليه وسلم فى مقامه الأول ، الذى قام فيه قبل هبوطه » (١)

وشريك قال فيه النسائى وأبومحمد بن الجارود : ليس بالقوى ، وكان يحيى بن سعيد القطان لا يحدث عنه ، قال

---

(١) المصدر السابق : صفحة ٤٩٢ / ١٣

الحافظ فى (الفتح) : « فهو مختلف فيه ، فإذا تفرد عُدَّ ما يتفرد به شاذًا ، وكذا منكرا على رأى من يقول : المنكر والشاذ شئ واحد »[1].

ومع ذلك دافع عن حديث شريك بعض أهل الحديث على أساس أن غالبية أئمة الجرح والتعديل قد قبلوا شريكا إلا أن يروى عنه ضعيف . قال طاهر بن طاهر : « وحديثه هذا رواه عنه ثقة ، وهو سليمان بن بلال . وعلى تقدير تسليم تفرده : (قبل أن يوحى إليه) لا يقتضى طرح حديثه ، فوهم الثقة فى موضع من الحديث لا يسقط جميع الحديث ، ولا سيما إذا كان الوهم لا يستلزم ارتكاب محذور ، ولو ترك حديث من وهم فى تاريخ لترك حديث جماعة من أئمة المسلمين ، ولعله أراد أن يقول : (بعد أن أوحى إليه) فقال : (قبل أن يوحى إليه) »[2].

وقد سلك البعض منهج التأويل هنا ، فنقل الحافظ فى (الفتح) قول القرطبى عن ابن عباس أنه قال : (دنا الله سبحانه وتعالى) قال : والمعنى : دنا أمره وحكمه ، وأصل التدلى : النزول إلى الشيء حتى يقرب منه . قال : وقد قيل :

---

(١) صفحة ٧٣ من (الإسراء والمعراج) ــ المصدر السابق وهو فى (الفتح) صفحة ٤٩٣ / ١٣ ــ كتاب التوحيد .

(٢) المصدر السابق : صفحة ٣٩٤ / ١٣ .

تدلى الرفرف لمحمد صلى الله عليه وسلم حتى جلس عليه ، ثم دنا محمد من ربه . انتهى

قال الحافظ[1] : « وقد أزال العلماء إشكاله . فقال القاضى عياض فى (الشفا) : إضافة الدنو والقرب إلى الله تعالى ، أو من الله ليس دنو مكان ولاقرب زمان ، وإنما هو بالنسبة إلى النبى صلى الله عليه وسلم إبانة لعظيم منزلته وشريف رتبته ، وبالنسبة إلى الله ــ عز وجل ــ تأنيس لنبيه وإكرام له ، ويتأول فيه ما قالوه فى حديث : (ينزل ربنا إلى السماء) وكذا فى حديث : (من تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا) .

« وقال غيره : الدنو : مجاز عن القرب المعنى ، لإظهار عظيم منزلته عند ربه تعالى ، والتدلى : طلب زيادة القرب ، و(قاب قوسين) بالنسبة للنبى صلى الله عليه وسلم عبارة عن لطف المحل وإيضاح المعرفة ، وبالنسبة إلى الله إجابة سؤاله ورفع درجته » .

أما الشيخ محمد متولى الشعراوى فيرى أن القرب هنا معناه التصاق بالقلب وبالروح ، فيقول فى (معجزة القرآن) ــ الجزء الثانى : « إن الله ــ سبحانه وتعالى ــ رحمة بعقول البشر .. يعطيهم فى الحياة ما يقرب إليهم فَهْمَ ما هو فوق طاقة

---

(١)صفحة : ٣٩٤ / ١/ .

العقل وقدرته .. فإذا أردنا أن نحلل هذه العبارة بالمقاييس البشرية .. عندما أقول : إن فلانا قريب من قلب فلان .. أو قريب من فلان .. هل أنا أستخدم فى هذه الحالة مسافة ؟ أبداً .. ذلك أنه قد يكون جالساً إلى جوارى تماما .. ولكن بين قلبيهما مسافة كبيرة خلقتها الأحداث من بغض وتنافر وتناحر .. ومن هنا فإن إنسانا يجلس إلى جوار إنسان قد يكون أبعد الناس عنه أو عن فهمه .. أو قد يكون أبغض الناس وأبعدهم عن قلبه »[1] إلى أن يقول : « لا أستطيع أن أقيس مسافة وأقول كم صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السماء ، لأن الله ليس عنده مسافة .. ولا أستطيع أن أقول : كم من الزمن استغرق ذلك ، لأن الله ــ سبحانه ــ ليس عنده زمن .. ولكنى أستطيع أن أقول : إن ذلك حدث .. لأن الله ــ سبحانه وتعالى ــ خالق السموات والأرض وكل شيء ، يستطيع أن يعطل القوانين لتتم معجزة من المعجزات لأنبيائه .. وكما نقول فى صعود محمد صلى الله عليه وسلم إلى السماء .. نقول فى القرب منه .. فالقرب ليس بالمسافة كما أوضحت ، ولكن معناه التصاق بالقلب والروح »[2] .

---

(١) (معجزة القرآن) ــ مؤسسة أخبار اليوم ــ القاهرة ــ ١٩٨٠ م ــ الجزء الثانى ــ صفحة ١٣٥ .

(٢) صفحة ١٣٨ .

والملاحظ أن هذه التفسيرات التى نميل إليها هى نقلة صريحة من التصور المادى المرتبط بصور تجسيدية إلى دلالات رمزية فى عالم الروحانيات الفسيح ونحن فى حقيقة الأمر أمام هذه الرواية لا نجد مناصا من سلوك هذا الطريق ، على أساس أن مفاهيمنا المستمدة من العوالم المادية التى نحياها ــ عالم الشهادة ــ قد لا تساعدنا البتة فى فهم حقيقة ما جرى فعلًا ، وهو فوق قدرتنا على إدراكه ، فلا نجد بُدًّا من التقريب باستعارة الصور من عالم الشهادة لوصف عالم الغيب ، وذلك منهاج قرآنى أصيل سنتحدث عنه فى موضع آخر من هذا الكتاب إن شاء الله .

أما الروايات الضعيفة والموضوعة ، فلا يصلح لها ذلك ، بل نرى ضرورة ردها متى ثبت الوضع أو الضعف ، فنحن فى غنى عن الجنوح إلى تأويلها تأويلات متعسفة من أجل الخروج من إشكالاتها .

فى رؤيـة الله تعـالى

وهذه أيضا من المعضلات فى حادثة الإسراء والمعراج ، اختلف فيها جمع كبير من الصحابة والعلماء من بعدهم ، واشتهر ذلك الخلاف جدا ، حتى ردده الخطباء على المنابر والكتاب فى الصحف والمتفيهقون فى أحاديثهم دون علم . والرؤية ثابتة والاختلاف فى كنهها ، ولا يصعب إن شاء الله تمييز الحق أبدا عند النظر فى الأقوال المتعارضة مع استحضار التنزيه الواجب للجليل المتعال .

يستند القائلون برؤية النبى صلى الله عليه وسلم لربه على ما رواه الترمذى من طريق مجالد عن الشعبى قال : « لقى ابن عباس كعبا بعرفة فسأله عن شئ ، فكبر كعب حتى جاوبته الجبال ، فقال ابن عباس : إنا بنو هاشم . فقال له كعب : إن الله قسم رؤيته وكلامه »[1] .

---

(١) المصدر السابق : صفحة ٧٦ من (الإسراء والمعراج) المستل من (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) .

وعند عبد الرزاق فى هذا الوجه : (فقال ابن عباس : إنا بنو هاشم نقول : إن محمدا رأى ربه مرتين . فكبر كعب وقال : إن الله قسم رؤيته وكلامه بين موسى ومحمد ، فكلم موسى مرتين ورآه محمد مرتين) قال مسروق : فدخلت على عائشة فقلت : هل رأى محمد ربه ؟ فذكر نفى عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ الذى سنذكره قريبا إن شاء الله .

وحكى عبد الرزاق أيضا ـــ على ما جاء فى (الفتح) ـــ عن معمر عن الحسن أنه حلف أن محمدا رأى ربه . ولابن مردويه من طريق إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبى عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن كعب مثله . وأخرج ابن خزيمة عن عروة بن الزبير إثباتها ، وكان يشتد عليه إذا ذكر له إنكار عائشة ، وبه قال سائر أصحاب ابن عباس ، وجزم به كعب الأحبار والزهرى وصاحبه معمر وآخرون .

وهو قول الأشعرى وغالب أتباعه ، وكذا الإمام أحمد .

وأما النفى واستهوال القول بالرؤية وتنزيه الجليل عن ذلك فترفع لواءه أم المؤمنين عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ فقد أخرج البخارى عن مسروق : قلت لعائشة ـــ رضى الله عنها ـــ : يا أمتاه ، هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه ؟ فقالت : لقد قَفَّ شعرى مما قلت ، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب :

ــ من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب . ثم قرأت : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (١) ، ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾ (٢) . ــ ومن حدثك انه يعلم ما فى غد فقد كذب . ثم قرأت ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ (٣)
ــ ومن حدثك أنه كتم فقد كذب . ثم قرأت : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ (٤) الآية . ولكن رأى جبريل ــ عليه السلام ــ فى صورته مرتين (٥)

واعترض أنصار الرؤية حديث عائشة هذا ، وخالفوها فى فهم الآيات . فأخرج الترمذى من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال : « رأى محمد ربه ، قلت : أليس الله يقول : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ ؟ قال : ويحك ، ذاك إذا تجلى بنوره الذى هو نوره ، وقد رأى ربه مرتين » وقال النووى : « فأما احتجاج عائشة بقول الله تعالى :

(١) سورة الأنعام : الآية ١٠٣

(٢) سورة الشورى : الآية ٥١

(٣) سورة لقمان : الآية ٣٤

(٤) سورة المائدة : ٦٧

(٥) انظر (صحيح البخارى) ــ كتاب التفسير ــ تفسير سورة النجم ــ حديث رقم ٤٨٥٥ فى ترقيم (فتح البارى) ــ مصدر سابق .

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ فجوابه ظاهر ، فإن الإدارك هو الإحاطة والله ــ تعالى ــ لايحاط به ، وإذا ورد نص بنفى الإحاطة لايلزم منه نفي الرؤية بغير إحاطة »[1] وأما حديثها فى نفى الرؤية فقال عنه : « لم تخبر أنها سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : لم أر ربى ، وإنما ذكرت ما ذكرت متأولة لقول الله تعالى .. والصحابى إذا قال قولًا وخالفه غيره منهم لم يكن قوله حجة »[2].

ولكن الحافظ فى (الفتح) تتبع هذا القول ، وتعجب منه فقال : « وهو عجيب ، فقد ثبت ذلك عنها فى (صحيح مسلم) الذى شرحه الشيخ ــ يعنى النووى نفسه ــ فعنده من طريق داود بن أبى هند عن الشعبى عن مسروق : « وكنت متكئا فجلست ، فقلت : ألم يقل ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ ؟ فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقال : « إنما هو جبريل » وأخرجه ابن مردويه من طريق آخر عن داود بهذا الإسناد : « فقالت : أنا أول من سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا ، فقلت : يا رسول الله ، هل رأيت ربك ؟ فقال : لا ، إنما رأيت جبريل منهبطا »[3].

(١) (صحيح مسلم بشرح النووى) ــ طبعة المكتب الثقافى ــ القاهرة ــ صفحة ٤١٧ / ١ .

(٢) المصدر السابق : صفحة ٤١٦ / ١ .

(٣) (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) ــ ط .الريان ــ صفحة ٤٣٣ / ٨ .

فعائشة إذن — رضى الله عنها — لم تقل بالرأى فى هذه المسألة ، ولا نجد محلا لما بنى على الاعتقاد الخاطىء فى ذلك من استنتاجات كقول معمر بن راشد : ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس [١] أو قول أبى عبد الله أحمد بن حنبل فى جوابه على من سأله : إنهم يقولون : إن عائشة قالت : من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية . فبأى شىء يدفع قولها ؟ قال : يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « رأيت ربى » قول النبى صلى الله عليه وسلم أكبر من قولها [٢] أقول : لا محل لهذه المقارنات جميعا ، إذ لا تعارض فى الحقيقة بين قولى عائشة وابن عباس — رضى الله عنهم — ويسقط التعارض بتأويل قوله صلى الله عليه وسلم : « رأيت ربى » بما يخرج عن رؤية البصر بعينى الرأس . وقد أنكر ابن قيم الجوزية أن يكون أحمد بن حنبل قد قاله . قال ابن القيم : « لم يقل أحمد — رحمه الله تعالى — : إنه رآه بعينى رأسه يقظة ، ومن حكى عنه ذلك فقد وهم عليه ، ولكن قال مرة : رآه ، ومرة قال : رآه بفؤاده فحكيت عنه روايتان ، وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه : إنه رآه بعينى رأسه ، وهذه نصوص أحمد موجودة ، ليس فيها ذلك » [٣].

(١) (صحيح مسلم بشرح النووى) — صفحة ٤١٦ / ١ .

(٢) (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) — صفحة ٤٧٥ / ٨ .

(٣) (زاد المعاد فى هدى خير العباد) — ط — مؤسسة الرسالة — بيروت — ط ٨ — ١٩٨٥ م صفحة ٣٧ / ٣ .

ونقل ابن القيم ــ رحمه الله ــ ما حكاه عثمان بن سعيد الدارمى من اتفاق الصحابة على أنه لم يره وتأييد شيخ الإسلام ابن تيمية لذلك فى قوله : « وليس قول ابن عباس : « إنه رآه » مناقضا لهذا ــ أى : لاتفاق الصحابة المذكور ، ولا قوله : « رآه بفؤاده » وقد صح عنه أنه قال : « رأيت ربى ــ تبارك وتعالى » ولكن لم يكن هذا فى الإسراء ، ولكن كان فى المدينة لما احتبس عنهم فى صلاة الصبح ، ثم أخبرهم عن رؤية ربه ــ تبارك وتعالى ــ تلك الليلة فى منامه ، وعلى هذا بنى الإمام أحمد ــ رحمه الله تعالى ــ وقال : نعم رآه حقا ، فإن رؤيا الأنبياء حق ولابد »[1].

ونقل محقق كتاب (الآية الكبرى فى شرح قصة الإسراء) للسيوطى قول الحافظ ابن كثير فى كتابه (الفصول فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم) : « ورأى ــ أى : النبى صلى الله عليه وسلم ــ ربه ــ عز وجل ــ ببصره على قول بعضهم ، وهو اختيار أبى بكر بن خزيمة من أهل الحديث ، وتبعه جماعة من المتأخرين . وروى مسلم عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أنه رآه بفؤاده مرتين وأنكرت عائشة ــ رضى الله عنها ــ رؤية البصر ، وروى مسلم عن أبى ذر

---

(١) (زاد المعاد فى هدى خير العباد) صفحة ٣٧ / ٣ ، وهى أول الفقرة السابقة منه ، فلعلهما جميعا لابن تيمية .

قال : قلت : يارسول الله رأيت ربك ؟ فقال : « نور أنى أراه » .. وإلى هذا مال جماعة من الأئمة قديما وحديثا اعتمادا على هذا الحديث ، واتباعا لقول عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالوا : هذا مشهور عنها ، ولم يعرف لها مخالف من الصحابة ، إلا ما روى عن ابن عباس أنه رآه بفؤاده ، ونحن نقول به ، وما روى فى ذلك من إثبات الرؤية بالبصر فلا يصح شيء من ذلك ، لا مرفوعا ، بل ولا موقوفا ، والله أعلم » .[1].

قال الحافظ فى (الفتح) : « قلت : جاءت عن ابن عباس أخبار مطلقة وأخرى مقيدة ، فيجب حمل مطلقها على مقيدها ، فمن ذلك ما أخرجه النسائى بإسناد صحيح وصححه الحاكم أيضا من طريق عكرمة عن ابن عباس ، قال : أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد ؟ وأخرجه ابن خزيمة بلفظ : « إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة » الحديث . وأخرج ابن إسحاق من طريق عبد الله بن أبى سلمة أن ابن عمر أرسل إلى ابن عباس : هل رأى محمد ربه ؟ فأرسل إليه أن نعم . ومنها ما أخرجه مسلم من طريق أبى العالية عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ[2]﴾ قال : رأى ربه بفؤاده مرتين

(١) (الفصول فى سيرة الرسول) لابن كثير صفحة ٢٦٨ (الآية الكبرى فى شرح قصة الإسراء) ــ تحقيق محيى الدين مستو ــ صفحة ١٢٦ .

(٢) الآيتان : ١١ ، ١٣ من سورة النجم .

وله من طريق عطاء عن ابن عباس قال : رآه بقلبه ، وأصرح من ذلك ما أخرجه ابن مردويه من طريق عطاء عن ابن عباس قال : لم يره رسول الله صلى الله عليه وسلم بعينه ، إنما رآه بقلبه .

« وعلى هذا فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفى عائشة بأن يحمل نفيها على رؤية البصر وإثباته على رؤية القلب ، ثم المراد برؤية الفؤاد : رؤية القلب لا مجرد حصول العلم ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان عالما بالله على الدوام . بل مراد من أثبت له أنه رآه بقلبه أن الرؤية التى حصلت له خلقت فى قلبه كما يخلق الرؤية بالعين لغيره ، والرؤية لا يشترط لها شىء مخصوص عقلًا ، ولو جرت العادة بخلقها فى العين ، وروى ابن خزيمة بإسناد قوى عن أنس قال : « رأى محمد ربَّه » وعند مسلم من حديث أبى ذر أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : « نور أنَّى أراه » ولأحمد عنه قال : « رأيت نورا» ولابن خزيمة عنه قال : « رآه بقلبه ولم يره بعينه » وبهذا يتبين مراد أبى ذر بذكر النور أى : النور حال بين رؤيته له ببصره »[1] .

---

(١) (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) ــ مصدر سابق ــ صفحة ٤٧٤ / ٨

وما دام الأمر كذلك فلا يصح — فى رأينا — الاعتراض على فهم السيدة عائشة للآية الكريمة ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ فما سبق هو شبه اتفاق — بل هو اتفاق — على استحالة الرؤية بالبصر ، أو بعينى الرأس ، أما الرؤية بالقلب أو الفؤاد فلا تتعلق بالآية الكريمة من قريب أو بعيد .

والحق أن معرفة الجليل واستحضار عظمته — سبحانه وتعالى — تجعل من القول برؤيته بالبصر قولًا مَهُولًا ، مع أن نفيه من بدهيات العقيدة وهذا ما وقف شعر أم المؤمنين عائشة لأجله ، ولكن كثرة ترديد الخلاف الظاهرى بين الفريقين ألبسه ثوب القضية العلمية الخطيرة ، حتى توقف بعض العلماء عن الحكم فيها استشعارا لخطورتها ، فهذا ابن جبير يقول : « لا أقول رآه ولا لم يره »[1] وها هو القرطبى فى (الْمُفْهِم) — على ما نقله الحافظ فى (الفتح) — يرجح قول الوقف فى هذه المسألة ويعزوه إلى جماعة من المحققين ، ويؤكد أنه « ليس فى الباب دليل قاطع ، وغاية ما استدل به للطائفتين ظواهر متعارضة قابلة للتأويل » حتى قوله : « وليست المسألة من العمليات فيكتفى فيها بالأدلة الظنية ، وإنما هى من المعتقدات فلا يكتفى إلا بالدليل القاطع »[2] .

(١) (السراج الوهاج فى الإسراء والمعراج) — لأبى إسحاق النعمانى — تحقيق عبد القادر أحمد عطا — مكتبة القرآن — القاهرة بدون تاريخ صفحة ٤٣ .

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى — صفحة ٤٧٤ / ٨ .

ومع ذلك أفرط بعض الناس على أنفسهم فى هذه المسألة ، ورددوا القول برؤيته ـــ سبحانه ـــ بالأبصار ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، والأمر لله من قبل ومن بعد ، فما الحاجة لمثل قول النسفى والتفتازانى : « رؤية الله تعالى بمعنى الانكشاف التام (بالبصر) ، وإثبات الشىء كما هو جائزة فى العقل ، بمعنى أن العقل إذا خلا ونفسه لم يحكم بامتناع رؤيته ما لم يقم برهان على ذلك ، مع أن الأصل عدمه »[1]..

ولقد شيد بعضهم منطقا متكاملًا فى جواز الرؤية حكاه أبو إسحاق محمد بن إبراهيم النعمانى الشافعى فى كتابه (السراج الوهاج فى الإسراء والمعراج) قال : « إنه تعالى موجود ، وكل موجود رؤيته جائزة غير مستحيلة ، والدليل على جوازها فى الدنيا سؤال موسى لها ، ومحال أن يجهل نبى ما يجوز على الله تعالى ومالا يجوز . بل لم يسأل إلا جائزا غير مستحيل وفى الآخرة قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[2] ومن السنة الحديث الصحيح الذى رواه الشيخان عن أبى هريرة « أن ناسا سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا

---

(١) السراج الوهاج فى الإسراء والمعراج ـــ صفحة ٣٩ .

(٢) الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة .

يارسول الله،قال : هل تضارون فى رؤية الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا يارسول الله . قال : فإنكم ترونه كذلك» روى هذا المعنى واحد وعشرون صحابيا. [١].

نقول ــ والعلم لله وحده ــ : إن الرؤية فى الدنيا غيرممكنة إلا بالقلب أو الفؤاد ، أما البصر الفانى فلا يرى الباقى ــ سبحانه وتعالى ــ [٢] ورؤية المؤمنين لربهم فى الآخرة فستكون بعيونهم الباقية التى يخلدون بها فى الجنة ، إذ لا يرى الباقى إلا الباقى . ولقد وجدت نحو هذا القول للإمام مالك ــ رحمه الله ــ فهو الصواب إن شاء الله تعالى .

ورحم الله الإمام النووى فقد غلبه الوهم فى قوله : « إن الراجح عند أكثر الغلماء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعينى رأسه ليلة الإسراء » [٣]. وقد فصلنا القول فى نفى ذلك وفى ترجيح العلماء بما يشبه الاتفاق على أن الرؤية كانت بالفؤاد أو القلب . وقد تابع قول الإمام النووى فى عصرنا بعض الكتاب دون تروٍّ أو تحقيق ، فكتب الشيخ الطنطاوى أحمد عمر فى (منبر الإسلام) يقول : « وقد رأى

---

(١) المصدر السابق : نفس الصفحة .

(٢) موسى ــ عليه السلام ــ لم يستطع رؤية الله تعالى ، وقيل له ﴿ لَن تَرَانِى ﴾ صدق الله العظيم .

(٣) (صحيح مسلم بشرح النووى) ــ صفحة ٤١٦ / ١ .

الرسول ربه بعينى رأسه ليلة الإسراء والمعراج ، ذلك هو القول الراجح عند أكثر العلماء ، وهو مذهب أهل السنة والجماعة من المتكلمين ، والحجج على هذا كثيرة أقواها حديث ابن عباس حبر هذه الأمة وترجمان القرآن الكريم فقد قال : أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد » [1] ولقد رأينا حقيقة أقوال العلماء وفهمهم لحديث ابن عباس — رضى الله عنهما — فليس فيه أكثر من إثبات الرؤية ، ولا خلاف فى ذلك ، ولكن من أين يستدل فيه على أنها بعينى الرأس ؟ .. اللهم عفوك .

---

(١) مجلة (منبر الإسلام) عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر عدد رجب ١٣٩٦ هـ — الملحق : صفحة ٩٨ .

في عدد مرات الإسراء وتواريخها

تشتمل الروايات الواردة فى إسراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعراجه على اختلافات كثيرة حول عدد مرات الإسراء ، وعدد مرات المعراج ، وحول تواريخ كل ذلك ، وخاصة تاريخ المعراج الذى فرضت فيه الصلاة على القول بتعدد المعراج .

وقد حاول العلماء ــ قديما وحديثا ــ الترجيح بين الروايات المختلفة ، وبصعوبة بالغة خرجوا بترجيحات نسبية ، أخذوا بها وإن خالفت روايات أخرى ، فمثلًا :

ــ جمهور العلماء والمحدثين والفقهاء والمتكلمين يذهبون إلى أن الإسراء والمعراج وقعا فى ليلة واحدة فى اليقظة ، بجسد النبى صلى الله عليه وسلم وروحه ، وذلك بعد المبعث ، ويقرر الحافظ ابن حجر أن هذا ما تواردت عليه ظواهر الأخبار

الصحيحة ، ولا ينبغى العدول عن ذلك إذ ليس فى العقل ما يحيله ، حتى يحتاج إلى تأويل [1].

ولكن ابن ميسرة التابعى الكبير وغيره يرون أن المعراج وقع فى المنام ، وأنه وقع مرتين : مرة فى المنام توطئة وتمهيدا ومرة ثانية فى اليقظة ، كما وقع نظير ذلك فى ابتداء مجىء الملك بالوحى .. يقول الحافظ فى (الفتح) :

« وإلى هذا ذهب المهلب شارح البخارى ، وحكاه عن طائفة ، وأبونصر بن القشيرى ، ومن قبلهم أبوسعيد فى (شرف المصطفى) حيث قال : كان للنبى صلى الله عليه وسلم معارج ، منها ما كان فى اليقظة ، ومنها ما كان فى المنام .

« وحكاه السهيلى عن ابن العربى ، واختاره » وجوز بعض قائلى ذلك أن تكون قصة المنام وقعت قبل المبعث ؛ لأجل قول شريك فى روايته عن أنس : « وذلك قبل أن يوحى إليه » [2].

وقال : وقوله : « قبل أن يوحى إليه » أنكرها الخطابى وابن حزم وعبد الحق والقاضى عياض والنووى .

« وعبارة النووى : « وقع فى رواية شريك ــ يعنى هذه ــ

(١) (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) : صفحة ٢٣٧ / ٧ .

(٢) المصدر السابق : نفس الصفحة .

أوهام أنكرها العلماء ، أحدها : قوله : « قبل أن يوحى إليه » وهو غلط لم يوافق عليه . وأجمع العلماء أن فرض الصلاة كان ليلة الإسراء ، فكيف يكون قبل الوحى ؟! » .

« وصرح المذكورون بأن شريكا تفرد بذلك »

وفى دعوى التفرد نظر ، فقد وافقه كثير بن خنيس عن أنس ، كما أخرجه سعيد بن يحيى بن سعيد الأموى فى كتاب (المغازى) من طريقه » [1] .

« وقال بعض المتأخرين : كانت قصة الإسراء فى ليلة ، والمعراج فى ليلة ، متمسكا بما ورد فى حديث أنس من رواية شريك ، من ترك ذكر الإسراء » .

« وكذا فى ظاهر حديث مالك بن صعصعة » .

« ولكن ذلك لا يستلزم التعدد ، بل هو محمول على أن بعض الرواة ذكر ما لم يذكره الآخر .

« وذهب بعضهم إلى أن الإسراء كان فى اليقظة ، والمعراج كان فى المنام .

أو أن الاختلاف فى كونه يقظة أو مناما خاص بالمعراج لا بالإسراء [2] .

---

(١) المصدر السابق : صفحة ٤٨٨ / ١٣ .

(٢) المصدر السابق : صفحة ٢٣٧ / ٧ .

ثم قال الحافظ فى موضع آخر من (الفتح) — بعد سرده لأدلة القائلين بوقوع المعراج عقب الإسراء فى ليلة واحدة :

« واحتج من زعم أن الإسراء وقع مفردا ، بما أخرجه البزار والطبرانى ، وصححه البيهقى فى (الدلائل) من حديث شداد بن أوس ، قال : قلنا يا رسول الله ، كيف أسرى بك ؟ قال : « صليت صلاة العتمة بمكة ، فأتى جبريل بدابة » ثم ذكر الحديث . قال : « ثم أتيت أصحابى قبل الصبح بمكة » .

« وفى حديث أم هانىء عند ابن إسحاق وأبى يعلى نحو ما في حديث أبى سعيد هذا » .

« فإن ثبت أن المعراج كان مناما ، على ظاهر رواية شريك عن أنس ، فينتظم من ذلك أن الإسراء وقع مرتين .. وأما كونه قبل البعث فلا يثبت » .

« وجنح الإمام أبو شامة إلى وقوع المعراج مرارا ، واستند إلى ما أخرجه البزار وسعيد بن منصور من طريق أبى عمران الجونى عن أنس .. وذكر الحديث ، ثم قال : ورجاله لابأس بهم ، إلا أن الدارقطنى ذكر له علة تقتضى إرساله » .

« وعلى كل حال ، فهى قصة أخرى ، الظاهر أنها وقعت بالمدينة » .

« ولا بعد فى وقوع أمثالها ، وإنما المستبعد وقوع التعدد فى قصة المعراج التى وقع فيها سؤاله عن كل نبى ، وسؤال أهل كل باب : هل بعث إليه ؟ وفرض الصلوات الخمس .. وغير ذلك فإن تعدد ذلك فى اليقظة لا يتجه .

فيتعين رد بعض الروايات المختلفة إلى بعض ، أو الترجيح .

إلا أنه لا بُعْدَ فى وقوع جميع ذلك فى المنام توطئة ، ثم وقوعه فى اليقظة على وفقه .

ومن المستغرب قول ابن عبد السلام فى (تفسيره) : كان الإسراء فى النوم واليقظة ، ووقع بمكة والمدينة »[1] انتهى .

* * *

ثم اختلفوا فى وقت حدوث المعراج ، ولننقل هنا أيضا ما أورده الحافظ ابن حجر فى ذلك لتتضح للقارىء رحابة الاختلاف بين الروايات ، ومدى تعارضها مع بعضها البعض . يقول الحافظ :

« وقد اختلف فى وقت المعراج ، فقيل : كان قبل المبعث ، وهو شاذ

إلا إن حمل على أنه وقع حينئذ فى المنام كما تقدم .

---

(١) المصدر السابق : صفحة ٢٣٨ / ٧

وذهب الأكثر إلى أنه كان بعد المبعث .

ثم اختلفوا فقيل : قبل الهجرة بسنة قاله ابن سعد وغيره ، وبه جزم النووى،وبالغ ابن حزم فنقل الإجماع فيه . وهو — أى : الإجماع — مردود ، فإن فى ذلك اختلافا كثيرا ، يزيد على عشرة أقوال :

منها ما حكاه ابن الجوزى أنه كان قبلها بثمانية أشهر .

وقيل : بستة أشهر . وحكى هذا الثانى أبو الربيع بن سالم ..

وقيل : بأحد عشر شهرا . جزم به إبراهيم الحربى .. ، ورجحه ابن المنير فى (شرح السيرة) لابن عبدالبر .

وقيل : قبل الهجرة بسنة وشهرين ، حكاه ابن عبدالبر .

وقيل : قبلها بسنة وثلاثة أشهر ، حكاه ابن فارس .

وقيل : بسنة وخمسة أشهر ، قاله السدى ، وأخرجه من طريقه الطبرى والبيهقى .

فعلى هذا ، كان فى شوال ، أو فى رمضان ، على إلغاء الكسرين منه ، ومن ربيع الأول ، وبه جزم الواقدى .

وعلى ظاهره ينطبق ما ذكره ابن قتيبة ، وحكاه ابن عبدالبر ، أنه كان قبلها بثمانية عشر شهرا ..

وقيل : كان فى رجب ، حكاه ابن عبد البر ، وجزم به النووى فى (الروضة) .

وقيل : قبل الهجرة بثلاث سنين ، حكاه ابن الأثير .

وحكى عياض وتبعه القرطبى والنووى عن الزهرى : أنه كان قبل الهجرة بخمس سنين ، ورجحه عياض ومن تبعه ... [1] إلى أن قال :

« وأما ما ذكره بعض الشراح أنه كان بين الليلتين اللتين أتاه فيهما الملائكة سبع ، وقيل : ثمان ، وقيل : تسع ، وقيل : عشر ، فيحمل على إرادة السنين ، لا كما فهمه الشارح المذكور أنها ليال . وبذلك جزم ابن القيم فى هذا الحديث نفسه .

وأقوى ما يستدل به أن المعراج بعد البعثة قوله فى هذا الحديث نفسه : إن جبريل قال لبواب السماء إذ قال له : أَبُعِثَ ؟ قال : نعم .. » [2].

ثم يذكر ابن حجر رواية الواقدى بأسانيده فى أول حديث الإسراء :

---

(١) المصدر السابق : صفحتا ٢٤٢ و ٢٤٣ / ٧ .

(٢) المصدر السابق : صفحة ٤٨٩ / ١٣ .

« كان النبى صلى الله عليه وسلم يسأل ربه أن يريه الجنة والنار فلما كانت ليلة السبت لسبع عشرة خلت من رمضان ، قبل الهجرة بثمانية عشر شهرا ، وهو نائم فى بيته ظهراً ، أتاه جبريل وميكائيل فقالا : انطلق إلى ما سألت . فانطلقا به إلى ما بين المقام وزمزم ، فأتى بالمعراج[1]، فإذا هو أحسن شىء منظرا ، فعرجا به إلى السموات فلقى الأنبياء ، وانتهى إلى سدرة المنتهى ، ورأى الجنة والنار ، وفرض عليه الخمس » ويعلق الحافظ على هذه الرواية بقوله : « فلو ثبت هذا لكان ظاهرا فى أنه فى معراج آخر ، لقوله : إنه كان ظهرا ، وإن المعراج كان من مكة .

ويعكر على هذا التعدد قوله : إن الصلوات فرضت حينئذ .

إلا إن حمل على أنه أعيد ذكره تأكيدا .

أو فرع على أن الأول كان مناما ، وهذا يقظة .

أو بالعكس . والله أعلم[2].

وهكذا يتضح التفاوت الكبير فى الروايات ، وفى آراء الشراح ، ولقد بنى على اختلاف الروايات الشيخ عبدالجليل

---

(١) هو السلم أو المرقاة التى يرتقى عليها .

(٢) المصدر نفسه : صفحة ٢٥٨ / ٧ .

عيسى عضو مجمع البحوث الإسلامية أن الاختلافات الواسعة فى روايات هذا الحديث تجعله لا يدخل فى نطاق الصحيح أو الحسن . وكان هذا الرأى المنشور فى جريدة (الأخبار) القاهرية يوم ٢٣ / ٨ / ١٩٧٤ م ، قد وافقه فيه الدكتور أحمد شلبى فى موسوعته عن التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية [١] .

والذى نراه أن مارجحه الجمهور عن علم هو الأرجح ، وأن الإسراء والمعراج وقعا بجسد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروحه ليلة واحدة فى اليقظة بعد البعثة وقبل الهجرة ، والله تعالى أعلم . ثم يتعين رد الروايات الشاذة ، والترجيح بين الروايات الصحيحة . ولا تقبل الروايات على علاتها ، وسلامة المتن أحد شروط صحة الحديث ، ولذلك قواعده المقررة التى سبق ذكرها فى هذا الكتاب ، فلتستصحب هذه القواعد ، وليرجع إليها .

إن قبول الروايات المختلفة دون تحرى شروط الصحة فيها مثير لإشكالات عديدة نحاول بإذن الله استعراض بعضها فيما يلى ، مع أبرز أقوال العلماء فيها .

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ــ مكتبة النهضة المصرية ــ ط ١١ ــ ١٩٨٤ م ــ الجزء الأول ــ صفحة ٢٤٦ .

عدة مداخل للقصة

وهى على الأقل ثلاث مقدمات متعارضة لحادثة الإسراء والمعراج :

ففى بعض الروايات ـــ كرواية شريك بن عبدالله ـــ وعن قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة ـــ أن الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم كان من مسجد الكعبة ، وفى سياق آخر فى رواية لمالك أن الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم كان من مسجد الكعبة ، وفى سياق آخر فى رواية لمالك : « بينما أنا عند البيت » .

وفى روايات أخرى ـــ كرواية الزهرى عن أنس عن أبى ذر ـــ أن الإسراء قد بدأ من بيته صلى الله عليه وسلم بعد أن فرج سقف البيت : « فُرِجَ سقفُ بيتى وأنا بمكة » وفى رواية الواقدى بأسانيده : أنه أُسرى به من شِعْبِ أبى طالب .

وفى رواية الطبرانى عن أم هانىء ــ هند بنت عبدالمطلب ــ أنه بات فى بيتها ، قال : « ففقدته من الليل ، فقال : إن جبريل أتانى ... » الحديث .

يقول العلامة الحافظ ابن حجر العسقلانى فى (الفتح) :

« والجمع بين هذه الأقوال أنه نام فى بيت أم هانىء ، وبيتها عند شِعْب أبى طالب ، ففرج سقف بيته ، وأضاف البيت إليه لكونه كان يسكنه ، فنزل منه الملك ، فأخرجه من البيت إلى المسجد ، فكان به مضطجعا وبه أثر النعاس . ثم أخرجه الملك إلى باب المسجد ، فأركبه البراق .

وقد وقع فى مرسل الحسن عند ابن إسحاق : أن جبريل أتاه ، فأخرجه إلى المسجد ، فأركبه البراق . وهو يؤيد هذا الجمع .

وقيل : الحكمة من نزوله عليه من السقف : الإشارة إلى المبالغة فى مفاجأته بذلك ، والتنبيه على أن المراد منه أن يعرج به إلى جهة العلو .[1] إلى أن قال : « ويحتمل أن تكون الحكمة فى انفراج سقف بيته الإشارة إلى ما سيقع من شق صدره وأنه سيلتئم بغير معالجة يتضرر بها »[2].

---

(١) (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) ــ تحقيق محب الدين الخطيب ــ دار الريان للتراث ــ القاهرة ــ الجزء السابع ــ صفحة ٢٤٣ / ٢٤٤ .

(٢) المصدر السابق : صفحة ٢٤٥ / ٧ .

أوصاف البراق

أثارت أوصاف البراق فى الماضى سؤالًا هاما عن الحكمة فى اختيار هذه الوسيلة بالذات ، مع كون القدرة قادرة على الإسراء به صلى الله عليه وسلم والعروج دون الحاجة إلى شيء من ذلك أصلًا ، وكان الجواب الذى اختاره الحافظ فى (الفتح) هو قوله : « قيل : الحكمة فى الإسراء به راكبا مع القدرة على طى الأرض له إشارة إلى أن ذلك وقع تأنيساً له بالعادة فى مقام خرق العادة ، لأن العادة جرت بأن الملِكَ إذا استدعى من يختص به يبعث إليه بما يركبه »[1]ونقل قول ابن أبى جمرة : « والقدرة كانت صالحة لأن يصعد بنفسه من غير براق ، ولكن ركوب البراق كان زيادة له فى تشريفه لأنه لو صعد بنفسه لكان فى صورة ماشي ، والراكب أعز من الماشي »[2].

---

(١) المصدر السابق : صفحة ٢٤٦ / ٧ .

(٢) صفحتا ٢٤٦ / ٢٤٧ / ٧ .

من أوصاف هذا البراق الذى جىء به ليعبر عن إعزاز راكبه وتشريفه أنه :

دابة دون البغل وفوق الحمار .

تضع قدمها عند منتهى طرفها .

وفى إحدى الرويات ــ لابن سعد عن الواقدى بأسانيده ــ : « له جناحان » أى : لكى يستطيع الطيران ، وهذا تشبيه لسرعة الإسراء بالطيران قال الحافظ فى (الفتح) : « ولم أرها لغيره »[1] أى : لغير ابن سعد .

وجاء فى رواية : « إذا أتى على جبل ارتفعت رجلاه ، وإذا هبط ارتفعت قدماه » وهى من حديث ابن مسعود عند أبى يعلى والبزار .

ولم يتطرق أحد ــ حسب علمنا ــ إلى تفسير حرصه هذا على مس الأرض ، وعدم الارتفاع فوق الجبال والأودية حتى لا يحتاج إلى ارتفاع رجليه أو يديه ، إلا إذا كان. ذلك لعدم الخروج عن هيئة الإسراء الذى هو السير ليلًا وفى هذه الحالة فلا حاجة له إلى الجناحين .

---

(١) صفحة ٢٤٦ / ٧ .

وبسند ضعيف عن ابن عباس فيما ذكره التعلبى : « لها خد كخد الإنسان وعرف كالفرس ، وقوائم كالإبل ، وأظلاف وذنب كالبقر ، وكان صدره ياقوتة حمراء » .

أما الإيجاز فى رواية البخارى عن ابن صعصعة فى قوله : « فحملت عليه » . فقد فصلته رواية أخرى لأبى سعيد فى (شرف المصطفى) جاء فيها : « فكان الذى أمسك بركابه جبريل ، وبزمام البراق ميكائيل »

وأخرج الترمذى — وقال : حسن غريب — فى رواية لعمر عن قتادة عن أنس أن جبريل قال للبراق حين استصعب على النبى صلى الله عليه وسلم : ما حملك على هذا ؟ فوالله ما ركبك خلق قط أكرم على الله منه قال : « فارْفَضَّ عرقا » : صححه ابن حبان .

وفى حديث مرسل لابن إسحاق عن قتادة : « أنه لما شَمَسَ ، وضع جبريل يده على معرفته ، فقال : أما تستحى ؟ »

وفى رواية وثيمة عن ابن إسحاق : « فارتعشت حتى لصقت بالأرض فاستويت عليها » .

وفى تبرير استصعاب البراق جزم السهيلى أنه : « إنما استصعب عليه صلى الله عليه وسلم لبعد عهده بركوب الأنبياء قبله » وهذا مبنى على قول الزبيدى فى مختصر العين ،

وصاحب التحرير : « هى دابة كان الأنبياء ـــ صلوات الله وسلامه عليهم ـــ يركبونها » .. قال النووى فى (الشرح) : « وهذا الذى قالاه من اشتراك جميع الأنبياء فيها يحتاج إلى نقل صحيح »[1].

ومن الأخبار الواهية التى نوه على ضعفها الحافظ فى (الفتح) ما جاء من أن البراق لما عاتبه جبريل قال له معتذرا : إنه مس الصفراء اليوم ، وأن الصفراء صنم من ذهب كان عند الكعبة ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم مر به فقال : « تبًّا لمن يعبدك من دون الله » وأنه صلى الله عليه وسلم نهى زيد بن حارثة أن يمسه بعد ذلك ، وكسره يوم فتح مكة[2].

بينما قال ابن المنير : « إنما استصعب البراق تيها ، وزهوا بركوب النبى صلى الله عليه وسلم وأراد جبريل استنطاقه ، فلذلك خجل وارْفَضَّ عرقا من ذلك .

قال الحافظ فى (الفتح) : « وقريب من ذلك رجفة الجبل

---

(١) (صحيح مسلم بشرح النووى) ـــ طبعة المكتب الثقافى ـــ القاهرة ـــ الجزء الأول ـــ صفحة ٣٨٨ .

(٢) (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) ـــ المصدر الأسبق ـــ صفحة ٢٤٧ / ٧ .

به ، حتى قال له : (اثبت، فإنما عليك نبى وصديق وشهيد) فإنها هزة الطرب لا هزة الغضب »[1].

واختلف فى ركوب جبريل مع النبى صلى الله عليه وسلم على البراق ، وأمكن التأويل أيضا ، ولهذا يقول الحافظ : « ووقع فى حديث حذيفة عند أحمد قال : (أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق ، فلم يزايل ظهره هو وجبريل حتى انتهيا إلى بيت المقدس) .. فهذا لم يسنده حذبفة عن النبى صلى الله عليه وسلم فيحتمل أنه قاله عن اجتهاد ، ويحتمل أن يكون قوله : معناه : « هو وجبريل » يتعلق بمرافقته فى السير لا فى الركوب ، قال ابن دحية وغيره : وجبريل قائد أو سائق أو دليل ، قال : وإنما جزمنا بذلك لأن قصة المعراج كانت كرامة للنبى صلى الله عليه وسلم فلا مدخل لغيره فيها .

« قلت ـــ الحافظ ـــ : ويرد التأويل المذكور أن فى صحيح ابن حبان من حديث ابن مسعود (أن جبريل حمله على البراق رديفا له) ، وفى رواية الحارث فى مسنده : (أتى بالبراق فركب خلف جبريل فسار بهما) ، فهذا صريح فى ركوبه معه ، فالله أعلم .

---

(١) (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) المصدر الأسبق ـــ صفحة ٢٤٧ / ٧ .

« وأيضا فإن ظاهره أن المعراج وقع للنبى صلى الله عليه وسلم على ظهر البراق إلى أن صعد السموات كلها ووصل إلى ما وصل ، ورجع وهو على حاله . وفيه نظر لما سأذكره . ولعل حذيفة إنما أشار إلى ما وقع فى ليلة الإسراء المجردة التى لم يقع فيها معراج على ماتقدم من تقرير وقوع الإسراء مرتين » [1] .

ثم اختلفت الروايات فى مسألة صعوده إلى السموات : هل صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات السبع راكباالبراق ـــ كما هو مقتضى كلام ابن أبى جمرة فى قوله : (حتى أتى السماء الدنيا) ـــ أم أنه ترك البراق فى بيت المقدس وصعد على المعراج ـــ كما ورد فى الأحاديث الأخرى كحديث ابن إسحاق : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لما فرغت مما كان فى بيت المقدس ، أتى بالمعراج ، فلم أر قط شيئا أحسن منه ، وهو الذى يمد إليه الميت عينيه إذا حضر ، فأصعدنى صاحبى فيه ، حتى انتهي بى إلى باب من أبواب السماء .. » وفى رواية لكعب : « فوضعت له صلى الله عليه وسلم مِرْقَاة من ذهب ، حتى عرج هو وجبريل » ـــ وفى رواية لأبى سعيد فى (شرف المصطفى) : أنه أتى بالمعراج من جنة الفردوس ، وأنه منضد باللؤلؤ ، وعن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة »

(١) المصدر السابق : صفحتا ٢٤٧ ، ٢٤٨ / ٧ .

ومقتضى الروايات التى تنكر صعود البراق فى رحلة المعراج أن رسول لله صلى الله عليه وسلم قد ربطه فى بيت المقدس قبل دخول المسجد فى الحلقة التى تربط بها الأنبياء — وفى رواية بريدة عند البزار : « لما كان ليلة أسرى به فأتى جبريل الصخرة التى ببيت المقدس ، فوضع أصبعه فيها ، فخرقها ، فشبر بها البراق » .

ولكن الصحابى حذيفة بن اليمان — رضى الله عنه — استنكر ذلك القول ، فقد روى أحمد والترمذى قوله : « تحدثون أنه ربطه ؟! أخاف أن يفر منه ؟ وقد سخره عالم الغيب والشهادة » [1].

ويرد على ذلك البيهقى قائلًا : « المثبت مقدم على النافى » أى : أن من أثبت ربط البراق والصلاة فى بيت المقدس معه زيادة علم — على حد قول الحافظ [2]— على من نفى ذلك ، فهو أولى بالقبول .

واستفاد من ذلك بعض الشارحين بأن « فى ربط البراق الأخذ بالاحتياط فى الأمور وتعاطى الأسباب ، وأن ذلك لا

---

(١) رواه أحمد : ثنا أبو النضر ثنا سليمان ، عن شيبان ، عن عاصم ، عن زر بن حبيش ، ورواه أيضا أبوداود والطيالسى عن حماد بن سلمة عن عاصم ، ورواه الترمذى والنسائى عن عاصم . وقال الترمذى : حديث حسن . وهو فى تفسير ابن كثير — مصدر سابق — ص ٢٥٤ / ٤ .

(٢) (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) : صفحة ٢٤٨ / ٧ .

يقدح فى التوكل إذا كان الاعتماد على الله ــ تعالى ــ والله أعلم . قاله النووى فى (الشرح)[1] .

وفى عصرنا الحالى خرج المعترضون على وجود البراق أصلًا ، على أساس أن ما جرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو خرق لقوانين المادة ، فما حاجته إلى حيوان كالبراق يحتاج الأمر إلى ربطه بجوار بيت المقدس ؟ وهل احتاج عرش بلقيس لنقله إلى حمار أو بغل ؟ والله ــ سبحانه ــ يخضع له ما فى السموات والأرض ، وكل ما فيها طوع كلمة (كُنْ) .

يقول الأستاذ عبدالحميد جودة السحار : « إن آية الإسراء لم تذكر أنه كان محمولًا على شيء إنه كان يسبح فى الفضاء بقدرة الله التى لا تحد ، بعد أن أصبح حقيقة كونية فى غير حالتها الأرضية الناقصة فإن كان قد قيل : إنه ركب البراق فقد يكون المقصود البرق ، أو أية قوة كهربية ولا يمكن فى حالة إسراء الله بعبده أن تجرى أحكام الحواس ولا أحكام المادة»[2] .

ونحن نخالف الأستاذ السحار فى هذا القطع ، ونستشهد بما نعلمه من نزول جبريل ــ عليه السلام ــ بالوحى على سيد

---

(١) (صحيح مسلم بشرح النووى) : صفحة ٣٨٩ / ١ .

(٢) (الإسراء والمعراج) ــ مكتبة مصر ــ القاهرة ــ بدون تاريخ ــ صفحة ٢٥ .

المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ولا خلاف فى ذلك ، فلم يكن الله ــ سبحانه وتعالى ــ فى حاجة إلى هذه الواسطة لإبلاغ الوحى ، وهو الغنى ــ سبحانه ــ نستغفره من زلات الألسن ، بل بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم هى سبب الحاجة إلى هذه الواسطة التى تتشكل فى أشكال مما تألفه الحواس الإنسانية فلا تجزع منه ، وقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ير جبريل على صورته إلا مرتين ، فى المعراج .

واختيار وسيلة البراق فى إنجاز معجزة الإسراء والمعراج يحمل إشارة لطيفة يشير إليها فضيلة الشيخ محمود وفا هاشم فى قوله : « كان فى استطاعة العلى القدير أن ينقله فى لمح البصر إلى حيث يشاء وأنى يريد ، ولكنه يرسم لنا عن هذا الطريق اتخاذ الوسائل والتذرع بالأسباب القوية السريعة الموصلة للهدف المحققة للغرض ليشرف الإنسان من ورائها إلى الغاية المرجوة » [1] .

فاختيار وسيلة البراق إذن فيه إشارة إلى ضرورة الأخذ بالأسباب ، كما كان ربطه فى بيت المقدس رغم عدم الحاجة إلى ذلك تدريباً على الأخذ بالأسباب ، والقصة مليئة بالإشارات والدلالات لكل ذى بصيرة وجلاء .

(١) مقال بعنوان (رحلة إلى السماء) ــ مجلة (منبر الإسلام) ــ العدد ــ ٧ ــ السنة ٢٥ ــ رجب ١٣٨٧ / أكتوبر ١٩٦٧ م ــ الملحق : صفحة ٥ .

أما عن ماهية البراق فلا يعلمها إلا الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ يقول الأستاذ أحمد بهجت فى ذلك : « هو دابة تقع بين الحمار والبغل ، وهذه صورة البراق ، أما حقيقتها فلا يعلمها سوى الله ، وبهذه الأداة التى اشتق اسمها من البرق كانت الرحلة »[1].

وهو إيجاز طيب يجوز لنا أن نتوسع فيه قليلًا فنقول : إن البراق ـــ والله أعلم ـــ خلق من مخلوقات الله ، تشكل بإذن الله فى صورة الدابة المألوفة لمناسبة الصفة البشرية لصاحب الإسراء والمعراج صلى الله عليه وسلم .. ولكننا لا نجزم بصدق التفصيلات الوصفية الدقيقة لهذه الدابة ، إلا ما صح من رواياتها بمقاييس علم الحديث ، فيما يتعلق بصحة السند وصحة المتن على ما سبق أن قررنا ، وواجب على كل خطيب وكاتب وقصاص وواعظ تحرى صحة الأحاديث المروية فى ذلك قبل ذكرها على ألسنتهم وجريانها على أسنَّةِ أقلامهم . فإن المحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين .. والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفى ما قاله كالكذب عليه بما لم يقله . حفظنا الله وإياكم من أن نكون من هؤلاء أو هؤلاء .

---

(١) جريدة (الأهـــرام) المصرية ـــ ٢٢ / ٢ / ١٩٩٠ .

صلاة موسى فى قبره

روى الحافظ ابن كثير فى تفسيره (★) عن الحسن بن عرفة ، عن مروان بن معاوية ، عن قتادة بن عبدالله التيمى ، عن أبى ظبيان الجنبى عن أبى عبيدة بن عبدالله بن مسعود عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حتى مررنا برجل طوال سبط آدم كأنه من رجال أزد شنوءة ، فيرفع صوته يقول : أكرمته وفضلته ، قال : فدفعنا إليه ، فسلمنا عليه ، فرد السلام ، فقال : من هذا معك يا جبريل ؟ قال : هذا أحمد ، قال : مرحبا بالنبى الأمى العربى الذى بلغ رسالة ربه ونصح لأمته ، قال :ثم اندفعنا فقلت : من هذا ياجبريل ؟ قال : هذا موسى بن عمران . قال : قلت ومن يعاتب ؟ قال : يعاتب ربه فيك . قلت : ويرفع صوته على ربه ؟ قال : إن الله قد عرف له حِدَّتَهُ » .

★ (تفسير القرآن العظيم) — مصدر سابق — ص ٢٦٤ / ٤ .

وفى ظاهر هذه الرواية إشكالات عدة ، منها : هذا القيام فى القبر ؟ وهل تفرد به موسى دون الأنبياء — عليهم السلام — وكيف تأتى له — مع ذلك — أن يكون فى استقبال النبى صلى الله عليه وسلم فى السماء السادسة ، وكيف يستساغ منه رفع صوته على ربه وهو نبى مرسل يعلم جلال الله ، وما يجوز فى جنابه تعالى ومالا يجوز ، فهل يكون موسى فى أدبه مع ربه أدنى مما يطلبه الله من عامة المؤمنين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ . إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) صدق الله العظيم .

ثم هذا الأسف من موسى — عليه السلام — على ما فاته من فضل اختص به محمد صلى الله عليه وسلم وقوله — فى رواية أخرى — : « أبكى لأن غلاما (٢) بعث بعدى يدخل

---

(١) سورة الحجرات : الآيتان ٢ و ٣ .

(٢) كان سن النبى صلى الله عليه وسلم فى أرجح الروايات — قد تجاوز الخمسين وقت وقوع المعجزة .

الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتى » وقيل : إن موسى ــ عليه السلام ــ قال فى ذلك أيضا : « لم أظن أحدا يرفع على » فى رواية عن شريك عن أنس ، وفى حديث لأبى سعيد : « قال موسى : يزعم بنو إسرائيل أنى أكرم على الله ، وهذا أكرم على الله منى » ــ وزاد الأموى فى روايته : « ولو كان هذا وحده هان علىَّ ، ولكن معه أمته ، وهم أفضل الأمم عند الله .

لقد اجتهد العلماء ــ رحمهم الله ــ وجزاهم خيرا فى الإجابة على كثير من هذه الإشكالات ، ويحضرنا مثلًا قول الإمام النووى فى (الشرح) :

« كان بكاؤه ــ بكاء موسى ــ حزنا عليهم وغبطة لنبينا صلى الله عليه وسلم على كثرة أتباعه ، والغبطة فى الخير محبوبة ، ومعنى الغبطة: أنه ود أن يكون من أمته المؤمنين مثل هذه الأمة ، لا أنه ود أن يكونوا أتباعا له وليس لنبينا صلى الله عليه وسلم مثلهم . والمقصود أنه بكى حزنا على قومه ، وعلى فوات الفضل العظيم والثواب الجزيل بتخلفهم عن الطاعة ، فإن من دعا إلى خير وعمل الناسُ به كان له مثل أجورهم كما جاءت به الأحاديث الصحيحة ، ومثل هذا يبكى عليه ويحزن على فواته ، والله أعلم »[1].

---

(١) (صحيح مسلم بشرح النووى) ــ مصدر سابق ــ صفحة ٤٠٠ / ١

ويقول الحافظ ابن حجر فى (الفتح) : « واختلف فى حال الأنبياء عند لقى النبى صلى الله عليه وسلم إياهم ليلة الإسراء : هل أسرى بأجسادهم لملاقاة النبى صلى الله عليه وسلم تلك الليلة ، أو أن أرواحهم مستقرة فى الأماكن التى لقيهم النبى صلى الله عليه وسلم وأرواحهم مشكلة بأجسادهم ، كما جزم به أبوالوفاء بن عقيل ؟ واختار الأول بعض شيوخنا ، واحتج بما ثبت فى مسلم عن أنس : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « رأيت موسى ليلة أسرى بى قائما يصلى فى قبره » فدل على أنه أسرى به لما مر به : فقلت — أى : ابن حجر — : ليس بلازم ذلك ، بل يجوز أن يكون لروحه اتصال بجسده فى الأرض ، فلذلك يتمكن من الصلاة وروحه مستقرة فى السماء »[1].

وذكر حديث ابن مسعود عند الحارث وأبى يعلى والبزار : « وسمعت صوتا وتذمراً ، فسألت جبريل فقال : هذا موسى ، قلت : على من تذمُّره ؟ قال : على ربه قلت : على ربه ؟ قال : إنه يعرف ذلك منه » ثم قال : « قال العلماء : لم يكن بكاء موسى حسدا — معاذ الله — فإن الحسد فى ذلك العالم منزوع عن أجساد المؤمنين ، فكيف بمن اصطفاه الله — تعالى — بل كان أسفا على ما فاته من الأجر الذى يترتب عليه

---

(١) (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) — مصدر سابق — صفحة ٢٥٣ / ٧ .

رفع الدرجة بسبب ما وقع من أمته من كثرة المخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم المستلزم لتنقيص أجره ، لأن لكل نبى مثل أجر كل من اتبعه ، ولهذا كان من اتبعه من أمته فى العدد دون من اتبع نبينا صلى الله عليه وسلم مع طول مدتهم بالنسبة لهذه الأمة .

« وأما قوله : (غلام) فليس على سبيل النقص ، بل على سبيل التنويه بقدرة الله وعظيم كرمه ، إذ أعطى لمن كان فى ذلك السن ما لم يعطه أحداً قبله ، ممن هو أسن منه » إلى أن قال : « قال ابن أبى جمرة : إن الله جعل الرحمة فى قلوب الأنبياء أكثر مما جعل فى قلوب غيرهم ، لذلك بكى رحمة لأمته . وأما قوله : (هذا الغلام) فأشار إلى صغر سنه بالنسبة إليه .

« قال الخطابى : العرب تسمى الرجل المستجمع السن غلاما مادامت فيه بقية من القوة ويظهر لى ــ أى : للحافظ ــ أن موسى ــ عليه السلام ــ أشار إلى ما أنعم الله به على نبينا ــ عليهما الصلاة والسلام ــ من استمرار القوة فى الكهولية وإلى أن دخل فى سن الشيخوخة ولم يدخل على بدنه هرم ولا اعترى قوته نقص ، حتى أن الناس فى قدومه المدينة ــ كما سيأتى ــ من حديث أنس لما رأوه مُرْدِفاً أبابكر أطلقوا عليه اسم (الشاب) وعلى أبى بكر اسم (الشيخ) مع

كونه فى العمر أسن من أبى بكر . والله أعلم »[1]. وقال فى آخر شرحه لهذه القصة : « وقد وقع من موسى ــ عليه السلام ــ فى هذه القصة من مراعاة جانب النبى صلى الله عليه وسلم أنه أمسك عن جميع ما وقع له حتى فارقه النبى صلى الله عليه وسلم أدبا معه وحسن عشرة فلما فارقه بكى وقال ما قال »[2] ولم يذكر الحافظ ــ رحمه الله ــ من سمعه إذن ونقل قوله ؟ وقال النووى فى (الشرح) :

« قال القاضى : فإن قيل : كيف رأى موسى ــ عليه السلام ــ يصلى فى قبره ، وصلى النبى صلى الله عليه وسلم بالأنبياء ببيت المقدس ووجدهم على مراتبهم فى السموات وسلموا عليه ورحبوا به ؟ .

فالجواب : أنه يحتمل أن تكون رؤيته موسى فى قبره عند الكثيب الأحمر كانت قبل صعود النبى صلى الله عليه وسلم إلى السماء ، وفى طريقه إلى بيت المقدس ، ثم وجد موسى قد سبقه إلى السماء ويحتمل أنه صلى الله عليه وسلم رأى الأنبياء ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ وصلى بهم على تلك الحال لأول ما رآهم ، ثم سألوه ورحبوا به ، أو يكون اجتماعه

---

(١) و (٢) : (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) ــ صفحة ٢٥٢ / ٧ .

بهم وصلاته ورؤيته موسى بعد انصرافه ورجوعه من سدرة المنتهى.والله أعلم »[1] .

ولا أحب ـــ أيها القارىء الكريم ـــ أن أنهى هذا الحديث هنا قبل أن تشاركنى فى قراءة بعض الكلام الطيب الذى كتبه الشيخ على فريج حسنين فى محاولته لاستجلاء السبب فى حزن موسى ـــ عليه السلام ـــ وبكائه ، وربط ذلك بمايراه من أن الحكمة من معجزة الإسراء والمعراج هى نقل الرسالة من بنى إسرائيل الى أمة محمد صلى الله عليه وسلم يقول الشيخ : « ومرور الرسول ـــ عليه السلام ـــ على موسى بالذات ، لأن محمدا ـــ عليه السلام ـــ لم يجىء إلى هنا إلا ليتسلم العلم باسم القرآن ، وقد كان موسى يحمله باسم التوراة ، ولأن لواء الدين بكتابه وشريعته وسلطانه إنما يعقد فى السماء لأولى العزم من الرسل ، وبهذا علم أن هناك تولية وتنحية ، واستبدال أمة بأمة ، وشريعة بشريعة ، وكتاب بكتاب ، وقد ظهر من الموقف شعور سيدنا موسى ـــ عليه السلام ـــ بالأسى لقومه والأسف على ما نالهم من سخط بدل رضاً ، ومقت مكان حب ، وإبعاد بعد تقريب .... « وأسف سيدنا موسى ـــ عليه السلام ـــ وبكاؤه فى هذا الموقف ليس حسدا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما هو لما أصاب أمته من

---

(١) (صحيح مسلم بشرح النووى) ـــ صفحة ٤١٣ / ١ .

بعده ، حتى غضب الله عليهم ، واستبدل بهم غيرهم ، ولهذا كان لابد أن تبين الحكمة لسيدنا موسى ـــ عليه السلام ـــ فى هذا الصنيع ، حتى يعلم سبب تفضيل هذه الأمة على أمته ، وإحلالها مكانها فى زعامة الدين وقيادته .....

« وموسى ـــ عليه السلام ـــ وأمته ومنهم جميع الرسل والأنبياء فيما بينه وبين عيسى ـــ عليهم السلام ـــ خدموا الدين وحملوا العلم وجاهدوا فى سبيل الله مخلصين ، وقاموا بالأمر آلاف السنين ، فإذا خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات وصاروا غير أهل للأمانة والزعامة وأصبح لزاما أن ينتقل الأمر عنهم إلى غيرهم ، فإن التشريف والتكريم لأولئك الرسل والأنبياء من بنى إسرائيل ـــ عليهم السلام ـــ أن يكون ذلك على ملأ منهم ، وأن يتم على صورة فيها من اللطف والرفق والإقناع ما يراهم الله أهلا له بسابق خدماتهم وجهادهم فى سبيله ، وهو ـــ سبحانه ـــ المنعم المتفضل ، ولهذا جمعهم لمبايعة محمد ـــ عليه السلام ـــ بالأمانة والزعامة فى بيت المقدس ليلة الإسراء على بساط المحبة والرضا تحت لواء الوحدة فى الدين والعبودية لله رب العالمين » [1] .

---

(١) مقال (الآية العظمى فى الإسراء والمعراج) ـــ مجلة (منبر الإسلام) عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ـــ مصر ـــ عدد رجب ١٣٩٥ هـ ـــ الملحق : صفحة ٧٨ / ٨٠ .

لماذا الإسراء إلى بيت المقدس؟

وهذا سؤال مشهور اختلفوا فى الإجابة عليه :

فعند بعض المفسرين والعلماء أن الحكمة من الإسراء إلى بيت المقدس قبل العروج ليحصل العروج مستويا من غير تعويج . وهذا على أساس أن باب السماء الذى يقال له (مصعد الملائكة) يقابل بيت المقدس ، كما رواه كعب الأحبار .

ــ قال الحافظ فى (الفتح) : « وفيه نظر ، لورود أن فى كل سماء بيتا معمورا ، وأن الذى فى السماء الدنيا حيال الكعبة وكان المناسب أن يصعد من مكة ليصل إلى البيت المعمور بغير تعويج ، لأنه صعد من سماء إلى سماء إلى البيت المعمور .. » .

« وقد ذكر غيره مناسبات أخرى ضعيفة :

قيل : الحكمة فى ذلك أن يجمع صلى الله عليه وسلم فى تلك الليلة بين رؤية القبلتين ..

أو لأن بيت المقدس كان هجرة غالب الأنبياء قبله فحصل له الرحيل إليه فى الجملة ليجمع بين أشتات الفضائل .

أو لأنه محل الحشر وغالب ما اتفق له فى تلك الليلة يناسب الأحوال الأخروية ، فكان المعراج منه أليق بذلك .

أو للتفاؤل بحصول أنواع التقديس له حسًّا ومعنى .

أو ليجتمع بالأنبياء جملة ...

والعلم عند الله [1] انتهى كلام الحافظ .

وعقب على هذا الكلام الشيخ أبو إسحاق محمد إبراهيم النعمانى الشافعى فقال : « وما ذكره شيخنا فى الفتح إنما يتأتى إذا كان فى السماء باب يقابل الكعبة ، والفرض أن الباب يقابل بيت المقدس ، لكن وقع فى الحديث : لما سمع النبى صلى الله عليه وسلم حسًّ فتح الباب وهو بمكة قال : « هذا باب من السماء فتح لم يفتح قبل اليوم » [2] [3] .

وحكى الإمام جلال الدين السيوطى قول بعضهم فى حكمته : إنه كان « لإرادة إظهار الحق على من عاند ، لأنه لو

---

(١) (فتح البارى) مصدر سابق : صفحة ٢٣٦ ، ٢٣٧ / ٧ .

(٢) أخرجه أبوعبيد فى فضائل القرآن عن أبى هريرة .

(٣) (السراج الوهاج فى الإسراء والمعراج) ــ تحقيق عبدالقادر أحمد عطا ــ مكتبة القرآن ــ١٩٨٥ م ــ صفحة ٦٦ .

عرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلًا إلى البيان والإيضاح ، فلما ذكر ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ أنه أسرى به إلى بيت المقدس ، سألوه عن جزئيات من بيت المقدس كانوا رأوها وعلموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك فلما أخبرهم بها حصل التحقيق بصدقه فيما ذكر من الإسراء إلى بيت المقدس فى ليلة ، وإذا صح خبره فى ذلك لزم تصديقه فى بقية ما ذكره » [1] .

وذكر نحوه شارح العقيدة الطحاوية الشيخ محمد بن علاء الدين بن أبى العز الحنفى [2] .

ومن أقوال المحدثين فى ذلك نختار قول الشهيد سيد قطب ـــ رحمه الله ـــ فى (الظلال) حين قال : « والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رحلة مختارة من اللطيف الخبير ، تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل ـــ عليهما السلام ـــ إلى محمد خاتم النبيين وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعا ، وكأنما أريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الأخير

---

(١) (الآية الكبرى فى شرح قصة الإسراء) ـــ بتحقيق محيى الدين مستو ـــ دار ابن كثير (دمشق / بيروت) ومكتبة دار التراث (المدينة المنورة) الطبعة الثانية ـــ ١٩٨٧ م ـــ صفحة ١١٦ .

(٢) (شرح العقيدة الطحاوية) ـــ المكتب الإسلامى ـــ بيروت ـــ الطبعة الثامنة ـــ ١٩٨٤ م صفحة٢٢٦ .

لمقدسات الرسل قبله ، واشتمال رسالته على هذه المقدسات ، وارتباط رسالته بها جميعا . فهي رحلة ترمز إلى أبعد من حدود الزمان والمكان ، وتشمل آمادا وآفاقا أوسع من الزمان والمكان ، وتتضمن معانى أكبر من المعانى القريبة التى تتكشف منها للنظرة الأولى » (١).

ومن المحدثين من يرى أن السلم المسمى بالمعراج إنما هو محض نقل عن رؤيا يوحنا اللاهوتى التى جاءت فى آخر الأناجيل . قاله عبدالحميد جودة السحار فى (الإسراء والمعراج) وبرر ما قيل فى المعراج (السلم) بعجز الحواس البشرية عن إدراك حقائق الكون ، فلا يمكن تصوير أشياء غير حسية بتلك الحواس ، وقال : « فلو عرفوا أن المادة الصلبة مجرد كهارب فى مرتبة اهتزاز معينة لما خدعتهم حقيقة المادة الصلبة التى تشبثوا بها فى الإسراء على البراق والمعراج على السلم ، ولأمكنهم أن يتصوروا إمكان الإسراء بلا مطية والصعود إلى السماء بلا سلالم » (٢).

وقد ذكر (المعراج) الذى هو السلم فى حديث أبى سعيد عن ابن إسحاق والبيهقى فى (الدلائل) وسنده فيما رواه

---

(١) (فى ظلال القرآن) ـــ سيد قطب ـــ دار الشروق ـــ بيروت / القاهرة ـــ الطبعة التاسعة ١٩٨٠ ـــ المجلد الرابع ـــ حـ ١٥ ـــ صفحة ٢٢١٢ .

(٢) (الإسراء والمعراج) لعبد الحميد جودة السحار ـــ مصدر سابق ـــ ص ٢٥ .

البيهقى : حدثنا أبوعبد الله محمد بن عبدالله الحافظ ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب ، حدثنا أبوبكر يحيى بن أبى طالب ، حدثنا عبدالله بن عطاء ، حدثنا أبو محمد راشد الحمانى ، عن أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : (الحديث) .

وأبو هارون العبدى هذا ضعيف ، وقيل : كذاب وصفه ابن كثير بأنه : مضعف عند الأئمة وقال : وإنما سقنا حديثه هاهنا ـــ أى : فى التفسير ـــ لما فيه من الشواهد لغيره ، ووصف الحديث بالغرابة ، وذكر أنه به نكارة .

والخلاصة أننا كما قلنا فى كلامنا عن البراق نقول عن المعراج (أو السلم) إذ يجب الابتداء بتحرى صحة الحديث أيا كان ، فإن كان ضعيفا فقد كفى الله المؤمنين شر القتال ، واسترحنا منه برده . وإن كان صحيحا قبلناه ، وحملناه على ما حملنا به ذكر البراق سابقا . والله أعلم .

أخبار الأقداح

وفى الروايات أنه صلى الله عليه وسلم قد خير بين آنية فاختار إناء مليئا باللبن ، وأن جبريل حمد الله على أن هدى رسوله صلى الله عليه وسلم إلى الفطرة واختلفت أيضا فى ذلك الروايات :

ففى حديث للبخارى عن أبى هريرة أنهما كانا « قدحين من خمر ولبن، فنظر إليهما فأخذ اللبن، قال جبريل : الحمد لله الذى هداك للفطرة ، لوأخذت الخمر غَوَتْ أمتك » وأن ذلك كان بإيلياء (بيت المقدس) .

وللبخارى أيضا عن مالك بن صعصعة أنهم كانوا ثلاثة آنية : « إناء من خمر ، وإناء من لبن ، وإناء من عسل » فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إناء اللبن، وأن ذلك كان عند البيت المعمور فى السماء السابعة .

وللبخارى أيضا عن أنس بن مالك أنهم كانوا ثلاثة أقداح : « قدح فيه لبن ، وقدح فيه عسل ، وقدح فيه خمر . فأخذت الذى فيه اللبن » وأن ذلك كان عند سدرة المنتهى .

وفى حديث لأبى هريرة : « ثم انطلقنا ، فإذا نحن بثلاثة آنية مغطاة ، فقال جبريل : يامحمد ، ألا تشرب مما سقاك ربك ؟ فتناولت إحداها ، فإذا هو عسل فشربت منه قليلا ، ثم تناولت الآخر ، فإذا هو لبن فشربت منه حتى رويت . فقال : ألا تشرب من الثالث ؟ قلت : قد رويت . قال : وفقك الله » وأن ذلك كان بعد لقائه بأبى الأنبياء إبراهيم ــ عليه السلام ــ فى السماء السابعة .

وفى رواية البزار من هذا الوجه أن الثالث كان خمراً لكن وقع عنده أن ذلك كان ببيت المقدس ، وأن الإناء الأول كان ماء ، ولم يذكر العسل .

وفى حديث ابن عباس عند أحمد « فلما أتى المسجد الأقصى ، قام يصلى ، فلما انصرف جىء بقدحين . فى أحدهما لبن وفى الآخر عسل ، فأخذ اللبن »

وعند مسلم من طريق ثابت عن أنس : « فجاء جبريل بإناء من خمر ، وإناء من لبن ، فأخذت اللبن ، فقال جبريل : أخذت الفطرة ثم عرج إلى السماء » وكان ذلك ببيت المقدس .

وفى حديث شداد بن أوس : فصليت فى المسجد ــ بالقدس ــ حيث شاء الله وأخذنى من العطش أشد ما أخذنى فأتيت بإناءين : أحدهما لبن والآخر عسل فعدلت بينهما ، ثم هدانى الله فأخذت اللبن .

وفى حديث أبى سعيد عند ابن إسحاق : « فصلى بهم ــ يعنى بالأنبياء ــ فى المسجد الأقصى ثم أتى بثلاثة آنية : إناء فيه لبن وإناء فيه خمر ، وإناء فيه ماء ، فأخذت اللبن » .

وفى مرسل الحسن نحوه ، لكن لم يذكر « إناء الماء» .

وفى البخارى فى رواية سعيد بن المسيب عن أبى هريرة « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به بإيلياء بإناء فيه خمر ، وإناء فيه لبن ، فنظر إليهما ، فأخذ اللبن ، فقال له جبريل: الحمد لله الذى هداك للفطرة ، لو أخذت الخمر غوت أمتك » وهو عند مسلم .

وفى رواية لعبدالرحمن بن هاشم بن عتبة عن أنس عند البيهقى : « فعرض عليه الماء والخمر واللبن ، فأخذ اللبن ، فقال له جبريل : أصبت الفطرة ، ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك ، ولو شربت الخمر لغويت وغوت أمتك » .

وهكذا فنحن أمام اختلاف فى عدد الآنية : هل كانا إناءين أم ثلاثة؟ وفى محتوياتها : (خمر ، لبن) أم (خمر ، لبن، عسل)

أم (عسل ، لبن) أم (خمر ، لبن ، ماء) وفى مكان الشرب : هل كان ببيت المقدس ؟ أم فى السماء السابعة ؟ .

لقد سرد الحافظ ابن حجر فى (الفتح) هذه الروايات ثم حاول التوفيق بينها فقال :

« ويجمع بين هذا الاختلاف إما بحمل (ثُمَّ) على غير بابها من الترتيب وإنما هى بمعنى الواو هنا .

وإما بوقوع عرض الآنية مرتين : مرة عند فراغه من الصلاة ببيت المقدس وسببه ما وقع له من العطش ، ومرة عند وصوله إلى سدرة المنتهى ورؤية الأنهار الأربعة . .

أما الاختلاف فى عدد الآنية وما فيها فيحمل على أن بعض الرواة ذكر ما لم يذكره الآخر ، ومجموعها أربعة آنية فيها أربعة أشياء من الأنهار الأربعة التى رآها تخرج من أصل سدرة المنتهى .

ووقع فى حديث أبى هريرة عند الطبرى لما ذكر سدرة المنتهى « يخرج أصلها من أنهار من ماء غير آسن ، ومن لبن لم يتغير طعمه ، ومن خمر لذة للشاربين ، ومن عسل مصفى » فلعله عرض عليه من كل نهر إناء .

وجاء عن كعب أن نهر العسل نهر النيل ، ونهر اللبن جيحان ، ونهر الخمر نهر الفرات ، ونهر الماء سيحان ، والله أعلم » [1].

ونقل مصنف (الإسراء والمعراج) للحافظ ابن حجر العسقلانى مستدلًا من (الفتح) ، قول الحافظ : « قال ابن المنير : لم يذكر السر فى عدوله عن العسل إلى اللبن ، كما ذكر السر فى عدوله عن الخمر ، ولعل السر فى ذلك كون اللبن أنفع ، وبه يشتد العظم وينبت اللحم ، وهو بمجرده قوت ، ولا يدخل فى السرف بوجه ، وهو أقرب إلى الزهد ، ولامنافاة بينه وبين الورع بوجه ، والعسل وإن كان حلالا لكنه من المستلذات التي قد يخشي علي صاحبها أن يندرج فى قوله تعالى : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ ﴾ [2].

« قلت ـــ أى : الحافظ ـــ : ويحتمل أن يكون السر فيه ماوقع فى بعض طرق الإسراء ، أنه صلى الله عليه وسلم عطش ـــ كما تقدم ـــ فأتى بالأقداح ، فآثر اللبن دون غيره ، لما فيه من حصول حاجته دون الخمر والعسل ، فهذا هو السبب الأصلى فى إيثار اللبن ، وصادف مع ذلك رجحانه

---

(١) (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) ـــ صفحة ٢٥٦ / ٧ .

(٢) سورة الأحقاف : من الآية ٢٠ .

عليهما من عدة جهات . قال ابن المنير : ولا يعكر على ماذكرته أنه صلى الله عليه وسلم كان يحب الحلوى والعسل ، لأنه إنما كان يحبه مقتصدا فى تناوله ، لا فى جعله ديدنا ولاتنطعا » .[1]

أما الحافظ ابن كثير فى تفسيره فرجح عرض الآنية مرتين من باب الضيافة ، قال : « وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل ، أو اللبن والخمر ، أو اللبن والماء ، أو الجميع ، فقد ورد أنه فى بيت المقدس ، وجاء أنه فى السماء ، ويحتمل أن يكون هاهنا وهاهنا ، لأنه كالضيافة للقادم ، والله أعلم » .[2]

---

(١) (الإسراء والمعراج) للحافظ ابن حجر ــ جرده من (الفتح) ورتب أحاديثه عبدالله حجاج ــ مكتبة التراث الإسلامى ــ القاهرة ــ ١٩٨٤ م ــ صفحة ٦٢ / ٦٣ . ولم أجدها فى أحاديث الإسراء والمعراج فى الجزء السابع من (الفتح) ، ثم وجدته نقلها من (الأشربة) فى الجزء العاشر منه صفحة ٧٦ . ولم ينوه إلى ذلك . وثَمَّ يقول الحافظ ــ رحمه الله ــ : « ويؤخذ من قول جبريل فى الخمر غوت أمتك أن الخمر ينشأ عنها الغى ، ولا يختص بقدر معين ، ويؤخذ من عرض الآنية عليه صلى الله عليه وسلم إرادة إظهار التيسير وإشارة إلى تفويض الأمور إليه » .

(٢) (تفسير القرآن العظيم) ــ دار الأندلس ــ بيروت ط ٣ ــ ١٩٨١ ــ صفحة ٢٧٨ / ٤ .

أبـواب السـموات

وتتواتر الروايات فى ذكر أبواب للسموات ، الواحدة تلو الأخرى ، وقد استفتح جبريل هذه الأبواب على ما ذكرته الروايات بتفصيله ... وعند شرحه لذلك اكتفى الإمام النووى بنقل قول القاضى عياض :

« وفى هذا أن للسماء أبوابا حقيقية ، وحفظة موكلين بها ، وفيه : إثبات الاستئذان . والله أعلم » .

ولم يثر ذكر هذه الأبواب كبير جدال عبر القرون حتى ظهر فى تعليقات وشروح بعض المعاصرين الآن استنكار لأن يكون المقصود من الروايات أبوابا حقيقية على نحو ما يفهم من ظاهر الروايات وما حكاه النووى عن القاضى .

من هؤلاء الشيخ عبدالجليل عيسى عضو مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ، قال : « الرواية تقول : إن جبريل دق الباب ، فسئل : من؟ فأجاب : أنا جبريل . ومما يدعو للدهشة

أن يوجه هذا السؤال لجبريل وهو طاووس الملائكة يروح ويجيء عدة مرات حاملًا آيات القرآن للرسول صلى الله عليه وسلم وتوجيهات الله لرسله من قبل ، وطبعا هو معروف للملائكة ، ثم إن جبريل والملائكة لا تقف الأبواب حائلة أمام رؤياهم ، ولا يحتاج الملاك الموكل بالباب — على فرض وجود باب — إلى هذا السؤال ، لأنه يرى من هو خلف الباب ، ثم تقول الرواية : إن الملاك عاد فسأل جبريل قائلا : من معك ؟ ومعنى هذا أنه يرى شخصا مع جبريل ، فلماذا لم ير جبريل ؟ وكان عليه أن يقول : هل معك أحد ؟ وإن كان هذا أيضا ليس سؤالًا عاديا ، فلا يمكن أن يتعرض جبريل لهذا السؤال فى كل مرة يمر بها .

وتقول الرواية أيضا إن جبريل قال للملاك : هذا محمد فسأله الملاك : هل أذن له ؟ وفى رواية : أَوَبُعِثَ ؟ وهى أسئلة لا تليق من إنسان عادى ، فما بالك بالملائكة المقربين ، فلا يمكن أن يتجه الرسول هذه الوجهة فى المعراج بدون إذن ، ولا يمكن القول بأن الملائكة لا يعرفون أنه قد بعث » [1] .

---

(١) انظر : (موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية) — د . أحمد شلبى — مكتبة النهضة المصرية — الطبعة ١١ — ١٩٨٤ م — صفحة ٢٤٨ / ١ .

وقد ناصر الدكتور أحمد شلبى أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة القاهرة هذا القول ، ووصف روايات استفتاح أبواب السموات بأنها (تصوير مادى محض) يؤخذ عليه ما يلى :

أولًا : ليست هناك أبواب صلدة تدق .

ثانيا : إذا فرض وكانت هناك أبواب فإن الحواجز لا تمنع الملائكة من الرؤية والنفاذ ، فلا معنى لقول الملاك الواقف بالباب : من الذى يدق الباب ؟ أو : من الذى يستفتح ؟ .

ثالثا : جبريل يروح ويجىء ويغدو بالوحى منذ مطلع البشرية ، فهو ـــ تأكيدا ـــ معروف لكل الملائكة ، وهل يوقف أمام الباب فى كل مرة ؟ .

رابعا : السؤال الثانى : وهو (من معك) يفهم منه أن الملاك يرى أن شخصا مع جبريل ، فلماذا لم ير جبريل ؟ وقد أخطأ واضع الحديث ، وكان عليه أن يقول : هل معك أحد ؟ ولو فعل ذلك لرددناه أيضا .

وعلى كل حال فإنه عندما يطلب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا اللقاء السامى فلابد أن تكون الأوامر قد صدرت لكل من بالطريق ليهىء السبيل لهذا اللقاء ، ولا يقف محمد بهذا النمط الذى تصوره الرواية .

ثم إن الرواية تصور الله ـــ جل وعلا ـــ كأنه هناك في مكان يسعى له محمد ، مع أن القرآن الكريم يقول : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ (١) ويقول : ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (٢) ويقول: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ (٣)

ويقول علماء التوحيد : إن الله فى كل مكان أو ينزهونه ـ جل وعلا ـــ عن المكان فيقولون : إن الله ليس له مكان ، وعلى هذا فالصورة السابقة مردودة تماما بنص القرآن الكريم وبحكم الفكر الإسلامى » (٤)

هذا ، وقد أيد الأستاذ عبدالحميد جودة السحار ما قاله الشيخ عبدالجليل عيسى والدكتور أحمد شلبى ، وقال بنحو ما قالاه فى كتابه عن الإسراء والمعراج (٥)

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٥ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٨٦ .

(٣) سورة المجادلة : الآية ٧ .

(٤) المصدر السابق : صفحة ٢٣٨ / ١ .

(٥) (الإسراء والمعراج) ـــ مكتبة مصر ـــ القاهرة ـــ بدون تاريخ ـــ صفحة ٢٩ .

ولكننا رغم وجاهة ما قيل فى ذلك الرفض لايمكن أن نستسيغ رد أحاديث متواترة ومتفق عليها فى الصحيحين وغيرهما . فالأرجح عندنا هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قالها فعلاً — والله أعلم — ويبقى أن تحمل هذه الأحاديث على المحمل المقبول الذى لايتعارض مع العقل مثلما لايتعارض مع النقل ..

ونحن إذا نظرنا إلى منهج القرآن الكريم فى مخاطبة عقولنا نجده قد فصل القول فى تصوير الجنة ونعيمها ، وقرب لنا صورة ذلك النعيم ، وشبهه بما نألفه من نعيم الدنيا ، مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه حكى عن ربه — جل وعلا — أنه قال : « أعددت لعبادى الصالحين مالاعين رأيت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . وقد جمعه ابن كثير من طرقه المختلفة فى (التفسير)[1] فانظر هناك تفسير قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [2].

وقال تعالى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [3] وهذا المزيد فى الحقيقة لا يعلمه إلا الله ولا نقدر على تصوره .

---

(١) (تفسير القرآن العظيم) ط — دار الأندلس — صفحة ٤٠٩ / ٥ وما بعدها .

(٢) سورة السجدة : الآية ١٧ .

(٣) سورة ق : الآية ٣٥ .

وهو مثل قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[1] صدق الله العظيم .

وللشيخ محمد متولى الشعراوى نحو هذا القول فى كتابه (المعجزة الكبرى : الإسراء والمعراج) يقول : « عندما يحدثنا الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ عن الجنة .. لا يعطينا صورتها لأنه ليس عندنا معانٍ تعطينا الصورة الحقيقية .. ولكنه ـــ جل جلاله ـــ يقول : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ [2] ولكن هل هذه هى الجنة ؟ .. إنها مثلها فقط .. لأن الجنة فيها مالاعين رأت .. ولا أذن سمعت .. ولا خطر على قلب بشر .. فلا يمكن أن يستوعب العقل البشرى ما فيها .. ولكن الحق ـــ سبحانه وتعالى ـــ يقرب الصورة إلينا بقدر ما تفهم عقولنا المحدودة .

« فإذا وصلنا إلى الرحلة التى يدخل فيها المؤمنون الجنة . فإننا سنرى ـــ إن شاء الله ـــ نعيما لا يعرفه أهل الأرض .. وليس لهم إلف به .. لأنه فوق قدرة عقولنا جميعا . » [3]

---

(١) سورة يونس : الآية ٢٦ .

(٢) سورة الرعد : الآية ٣٥ .

(٣) (المعجزة الكبرى : الإسراء والمعراج) مكتبة الشعراوى الإسلامية ـــ من إصدارات (أخبار اليوم) بالقاهرة ـــ ١٩٩٠ ـــ صفحتا ١١٣ و١١٤ .

إن ذلك المنهج القرآنى فى تقريب صور نعيم الجنة هو أصل فى أسلوب الدعوة إلى الله تعالى ، التى يلزم فيها الحرص على مخاطبة الناس على قدر عقولهم حتى لا يفتنهم الداعى من حيث لا يدرى .

وعلى هذا فأبواب السموات ، وطريقة استفتاحها ، مثلها مثل البراق ، وغيره من الصور المادية التجسيدية فى الروايات الصحيحة لأحاديث الإسراء والمعراج إنما تحمل على محمل التمثيل .. قال البيضاوى فى مناسبة شبيهة : « لعل ذلك من باب التمثيل ، إذ تمثيل المعانى قد وقع كثيرا ، كما مثلت له الجنة والنار فى عرض الحائط ، وفائدته كشف المعنوى بالمحسوس[1] » .

وحينئذ تسقط إشكالات الروايات الصحيحة جميعا ، والله سبحانه أعلم .

---

(١) انظر : (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) ــ صفحة ٢٤٥ / ٧ .

مكان إبراهيم عليه السلام

وقد اختلفت فيه الروايات :

ــ ففى رواية أنس عن أبى ذر ذكر أنه وجد فى السموات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم ــ صلوات الله عليهم ــ ولم يثبت منازلهم ، غير أنه صرح بوجود آدم فى السماء الدنيا وإبراهيم فى السماء السادسة .

قال النووى فى (الشرح) : « قوله فى هذه الرواية : (وجد إبراهيم صلى الله عليه وسلم فى السماء السادسة) وتقدم فى الرواية الأخرى أنه فى السابعة فإن كان الإسراء مرتين فلا إشكال فيه ، ويكون فى كل مرة وجد فى سماء ، وإحداهما موضع استقراره ووطنه ، والأخرى كان فيها غير مستوطن ، وإن كان الإسراء مرة واحدة فلعله وجده فى السادسة ثم ارتقى إبراهيم أيضا إلى السابعة . والله أعلم.[1] »

---

(١) (صحيح مسلم بشرح النووى) ــ صفحة ٣٩٦ / ١ .

وقال الحافظ فى (الفتح) : « والثابت فى جميع الروايتين غير هاتين ــ يعنى : رواية أنس عن أبى ذر وقول أنس ــ أنه فى السابعة فإن قلنا بتعدد المعراج فلا تعارض ، وإلا فالأرجح رواية الجماعة لقوله فيها : إنه رآه مسندا ظهره إلى البيت المعمور وهو فى السابعة بلا خلاف . وأما ما جاء من أنه ــ أى : البيت المعمور ــ فى السادسة عند شجرة طوبى ، فإن ثبت حمل على أنه البيت الذى فى السادسة بجانب شجرة طوبى ، لأنه جاء عنه : أن فى كل سماء بيتا يحاذى الكعبة وكل منها معمور بالملائكة » (١) .

وقال فى موضع آخر فيه : « وقد توافقت (٢) مع رواية ثابت عن أنس عند مسلم : أن فى الأولى آدم وفى الثانية يحيى وعيسى وفى الثالثة يوسف وفى الرابعة إدريس وفى الخامسة هارون وفى السادسة موسى وفى السابعة إبراهيم » (٣) .

---

(١) (الإسراء والمعراج) للحافظ ــ جرده من (الفتح) عبدالله حجاج ــ صفحة ٤١ .

(٢) أى : رواية قتادة عن أنس عن مالك بن صعصعة .

(٣) (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) ــ صفحة ٢٥٠ / ٧ .

وهذه هى المنازل الراجحة رغم مخالفة بعض الروايات فى إدريس وهارون وقد اتفق فيها قتادة وثابت ، ووافقهما يزيد ابن أبى مالك عن أنس إلا أنه خالف فى إدريس وهارون فقال : (هارون فى الرابعة وإدريس فى الخامسة) .

ووافقهم أبوسعيد إلا فى يوسف وعيسى ويحيى ، إذ جعل يوسف فى الثانية وعيسى ويحيى فى الثالثة .. والأرجح ما ذكرنا . والله أعلم

سدرة المنتهى وما غشيها

فى حديث البخارى عن أنس عن مالك بن صعصعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ثم صعد بى إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل .. » الحديث إلى أن قال : « ثم رفعت إلى سدرة المنتهى » وظاهر هذا الحديث أن سدرة المنتهى فى السماء السابعة وعلى هذا تتفق أكثر الروايات إلا رواية فى حديث ابن مسعود أنها فى السادسة .

قال القرطبى : « وهذا تعارض لا شك فيه ، وحديث أنس هو قول الأكثر ، وهو الذى يقتضيه وصفها بأنها التى ينتهى إليها علم كل نبى مرسل ، وكل ملك مقرب على ما قال كعب : وما خلفها غيب لا يعلمه إلا الله أو من علَّمه » [1] وبهذا جزم إسماعيل بن أحمد — على ما جاء فى (الفتح) — ولكن الحافظ ابن حجر فى (فتحه) لا يقر ما رآه القرطبى

---

(١) : (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) : صفحة ٢٥٣ / ٧ .

من تعارض ، فيقول : « ولا يعارض قوله : إنها فى السادسة مادلت عليه بقية الأخبار أنه وصل إليها بعد أن دخل السماء السابعة لأنه يحمل على أن أصلها فى السماء السادسة وأغصانها وفروعها فى السابعة وليس فى السادسة منها إلا أصل ساقها »[1] ويقول فى موضع آخر : « يحتمل أن تكون سدرة المنتهى مغروسة فى الجنة ، والأنهار تخرج من تحتها ، فيصح أنها فى الجنة »[2] .

قلت : قول القرطبى أظهر فى وجود التعارض ، وهذا الذى ذكره الحافظ يحتاج إلى نقل صحيح ، ولا يكفى فيه ما جاء بحديث ابن مسعود من قوله : « وهى فى السماء السادسة » .

أما تسميتها (بسدرة المنتهى) فقد اختلفوا فى سببها ، فروى كعب — كما سبق — أنها التى ينتهى إليها علم كل نبى مرسل وملك مقرب ، وقال غيره : إليها منتهى أرواح الشهداء . وقال النووى : سميت سدرة المنتهى لأن علم الملائكة ينتهى إليها ولم يجاوزها أحد إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم[3].

---

(١) (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) : صفحة ٢٥٣ / ٧ .

(٢) نفس المصدر : صفحة ٢٥٤ / ٧ .

(٣) : (صحيح مسلم بشرح النووى) : صفحة ٣٩١ / ١ .

وفى حديث ابن مسعود عند مسلم : « وإليها ينتهى ما يعرج من الأرض ، فيقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط فيقبض منها [1] .

وقد ورد فى أوصافها من حديث أنس عن مالك بن صعصعة أنها شجرة « نَبْقُهَا مثلُ قِلَالِ هَجَرَ ، وورقها مثل آذان الفيلة » وفى رواية لأبى هريرة ـــ وصفها ابن كثير بأنها مطولة جدا وفيها غرابة [2] ـــ : أنها شجرة « يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما لا يقطعها ، والورقة فيها تغطى الأمة كلها » .

ولا يجب حمل هذه الأوصاف على ظاهرها ، إذ الأرجح ـــ كما قلنا ـــ أنها للتقريب ـــ حسب معارفنا الدنيوية ، ويتأكد هذا إذا لاحظنا ما قيل فى تفسير قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ [3] ففى حديث أبى ذر ـــ رضى الله عنه ـــ قوله : « فغشيها ألوان لا أدرى ما هى » وهذا الوصف أليق ما يكون بالإبهام الوارد فى الآية الكريمة .

وفى حديث أنس عن مالك بن صعصعة عند البخارى لم يذكر أكثر من قوله : « ثم رفعت إلى سدرة المنتهى » دون تفصيل .

---

(١) : (صحيح مسلم بشرح النووى) : صفحة ٣٩١ / ١ .

(٢) تفسير ابن كثير : صفحة ٢٦٦ / ٤ .

(٣) سورة النجم : الآية ١٦ .

ولكن هذا الغشيان المبهم تم تجسيده فى حديث ابن مسعود عند مسلم ــ وهو الحديث الذى ذكر أن السدرة فى السماء السادسة ــ وجاء فيه : « قال الله تعالى : ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ قال : فَرَاش من ذهب » كما وقع فى رواية يزيد بن أبى مالك عن أنس : « جراد من ذهب » .

وينفى البيضاوى ظاهر هذه الأقوال فيقول : « وذكر الفراش وقع على سبيل التمثيل ، لأن من شأن الشجر أن يسقط عليها الجراد وشبهه ، وجعلها من الذهب لصفاء لونها وإضاءتها فى نفسها » [1].

فالصورة المذكورة هى مجرد تمثيل لتقريب الحال إلى مداركنا القاصرة ، ويقصد هذا الرأى ــ الذى نميل إليه ــ ما جاء فى حديث أبى سعيد وابن عباس : « يغشاها الملائكة » قلت : وليس الفراش أو الجراد ــ إذن ــ وما جاء فى حديث أبى سعيد عند البيهقى « على كل ورقة منها مَلَك » ولكن الأحسن من ذلك كله الإيجاز حيث أبهم الله تعالى ، وكما وقع فى رواية ثابت عن أنس فى (صحيح مسلم) : « فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت ، فما

---

(١) (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) : صفحة ٢٥٣ / ٧ .

أحد من خلق الله يستطيع أن يَنْعَتَهَا من حسنها » وهذا قول مجمل جميل .

ولا حاجة — إذن — إلى قول الحافظ فى (الفتح) : « ويجوز أن يكون — أى : الجراد — من الذهب حقيقة ، ويخلق فيها الطيران ، والقدرة صالحة لذلك »[1] لأن القدرة صالحة لكل شىء ، ولا غنى فى مثل هذا عن النقل الصحيح والدليل الصريح .

ونرفض لنفس السبب ما قاله الأستاذ عبدالحميد جودة السحار من أن « سدرة المنتهى هى (سدرانا مولتانا) النجم الأخير فى المجموعة الكونية ، وقد غشيه نور ربه » فهو قول بلا دليل ، أو هو تصور ذهنى محض . والتصورات الذهنية تجيز كل شىء ولا تقيم بنفسها برهانا على شىء .

---

(١) المصدر السابق : صفحة ٢٥٣ / ٧ .

النيـــل والفـــرات

وفى صحيح البخارى من حديث أنس عن مالك بن صعصعة : « قال : هذه سدرة المنتهى وإذا أربعة أنهار : نهران ظاهران ونهران باطنان . فقلت : ما هذا ياجبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران فى الجنة ، وأما الظاهران فالنيل والفرات » .

وهذا واضح فى أن الأنهار بالسماء السابعة ، كما هو ظاهر من أن السدرة فى هذه الرواية بالسماء السابعة على ما بيناه آنفا . ويعضده ما جاء فى إحدى الروايات عن مالك أيضا : « فى أصلها أربعة أنهار ...» الحديث .

ولكن رواية شريك تخالف فى موضع الأنهار ، إذ تصرح بأنها فى السماء الدنيا . قال : « فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطردان . فقال : ما هذان النهران ؟ قال : هذان النيل والفرات ، عنصرهما . ثم مضى فى السماء فإذا بنهر آخر عليه

قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فضرب يده فإذا هو مسك أذفر قال : ما هذا ياجبريل ؟ قال : الكوثر الذى خبأ لك ربك » الحديث .

وقد حاول العلماء التوفيق بينهما ، منهم الحافظ فى (الفتح) [1] قال : « والجمع بينهما أنه رأى النهرين عند سدرة المنتهى ، مع نهرى الجنة ، ورآهما فى السماء الدنيا دون نهرى الجنة ، وأراد بالعنصر عنصر امتيازهما بسماء الدنيا . كذا قال ابن دحية » إلى أن قال : « وأما الحديث الذى أخرجه مسلم بلفظ : « سيحان وجيحان والنيل والفرات من أنهار الجنة » فلا يغاير هذا ، لأن المراد به أن فى الأرض أربعة أنهار أصلها من الجنة ، وحينئذ لم يثبت لسيحون وجيحون أنهما ينبعان من أصل سدرة المنتهى فيمتاز النيل والفرات عليهما بذلك وأما الباطنان المذكوران فى حديث الباب ، فهما سيحون وجيحون ، والله أعلم » [2] .

وقال النووى فى (الشرح) : « وحدث نبى الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان ..) الحديث. هكذا هو فى أصول

---

(١) (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) : صفحة ٢٥٤ / ٧ .

(٢): (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) : صفحتا ٢٥٤ و ٢٥٥ / ٧ .

صحيح مسلم « يخرج من أصلها » والمراد : من أصل سدرة المنتهى . كما جاء مبينا فى صحيح البخارى وغيره قال مقاتل : الباطنان هما السلسبيل والكوثر ، قال القاضى عياض ـــ رحمه الله ـــ : هذا الحديث يدل على أن أصل سدرة المنتهى فى الأرض لخروج النيل والفرات من أصلها ، قلت : هذا الذى قاله ليس بلازم ، بل معناه أن الأنهار تخرج من أصلها ثم تسير حيث أراد الله ـــ تعالى ـــ حتى تخرج من الأرض وتسير فيها وهذا لا يمنعه عقل ولا شرع وهو ظاهر الحديث فوجب المصير إليه . والله أعلم » [١] .

قال الحافظ فى ـــ (الفتح) .. « وأما قول عياض : إن الحديث يدل على أن أصل سدرة المنتهى فى الأرض لكونه قال : إن النيل والفرات يخرجان من أصلها ، وهما بالمشاهدة يخرجان من الأرض فيلزم منه أن يكون أصل السدرة فى الأرض وهو متعقَّب ، فإن المراد بكونهما يخرجان من أصلها غير خروجهما بالنبع من الأرض .

« والحاصل أن أصلها فى الجنة ، وهما يخرجان أولا من أصلها، ثم يسيران إلى أن يستقرا فى الأرض ثم ينبعان ، واستدل به على فضيلة ماء النيل والفرات ، لكون منبعهما من الجنة وكذا سيحان وجيحان » .

(١): (صحيح مسلم بشرح النووى) ـــ صفحة ٤٠٠ / ١ .

« قال القرطبي : لعل ترك ذكرهما في حديث الإسراء لكونهما ليسا أصلًا برأسهما وإنما يحتمل أن يتفرعا عن النيل والفرات قال : وقيل إنما أطلق على هذه الأنهار أنها من الجنة تشبيها لها بأنهار الجنة لما فيها من شدة العذوبة والحسن والبركة . والأول أولى ، والله أعلم » [1].

ويلاحظ على هذه الشروح تأثرها بالمعارف الدنيوية لأصحابها حسب المتاح فى عصورهم ، فالنيل والفرات بالتأكيد لاينبعان من الجنة ، وجغرافية الأرض — كما نعرفها الآن — توضح أن بها عشرات الأنهار ، منها ما هو أطول وأغنى من النيل والفرات .. والخروج من هذا الإشكال يكون بالانتباه إلى ما جاء فى رواية شريك حين قال : « هذان النيل والفرات : عنصرهما » والحافظ — رحمه الله — فسر العنصر فى (الفتح) فقال : هو الأصل ثم لم يقف عنده بالشرح ، بل انتقل مباشرة إلى الجمع بين الروايتين عن موضع الأنهار فى السماء السابعة أم الثانية ؟ وقوله : (عنصرهما) — فى رأينا — يعنى أنهما ليسا هما هما على الحقيقة بل شبيهان لهما من نفس العنصر ، أى : من الماء الدنيوى الطاهر ربما ، أو من عنصرى الأكسجين والهيدروجين المكونين لِجُزَىْءِ الماء ، أو

---

(١) (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) — صفحة ٢٥٥ / ٧ .

غير ذلك ، والعلم عند الله ، المهم أنهما ليسا هما هما ، بل (عنصرهما) ، وهذا ما أغفلته الروايات الأخرى فجرَّت وراءها الشراح فى وديان شتى . والله أعلم .

وقد أول الشيخ محمد الغزالى فى (فقه السيرة) هذه الرؤية فقال : « وقد عرف محمد فى هذه الرحلة أن رسالته ستنساح فى الأرض وتتوطن الأودية الخصبة فى النيل والفرات وتنتزع هذه البقاع من مجوسية الفرس وتثليث الروم .

بل إن أهل هذه الأودية سيكونون حملة الإسلام جيلًا فى أعقاب جيل، وهذا معنى رؤية النيل والفرات فى الجنة ، وليس معناه أن مياه النهرين تنبع من الجنة كما يظن السذَّجُ والبُلْهُ » [1].

---

(١) (فقة السيرة) ــ ط . الريان الطبعة الأولى ــ ١٩٨٧ ــ صفحة ١٤١ .

خلق الملائكة ومكان البيت المعمور

ومن الخيال الجرىء فى مرويات الإسراء والمعراج ، ما رواه ابن مردويه وابن أبى حاتم من حديث لأبى هريرة جاء فيه : « وفى السماء نهر يقال له : نهر الحيوان ، يدخله جبريل كل يوم فينغمس ، ثم يخرج فينتفض فيخر عنه سبعون ألف قطرة ، يخلق الله من كل قطرة ملكا ، فهم الذين يصلون فيه ـــ أى : فى البيت المعمور ـــ ثم لا يعودون إليه »

وهذا حديث ضعيف بوصف الحافظ العسقلانى فى (الفتح) [1] ولكن روى نحوه ابن المنذر بدون ذكر النهر عن أبى هريرة موقوفا . وحكى النووى فى (الشرح) قول صاحب (مطالع الأنوار) : وفى هذا أعظم دليل على كثرة الملائكة ـــ صلوات الله وسلامه عليهم ـــ والله أعلم [2] .

---

(١) (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) ـــ صفحة ٣٥٦ / ٦ .

(٢) (صحيح مسلم بشرح النووى) ـــ صفحة ٤٠١ / ١ .

وقال الحافظ : « واستدل به على أن الملائكة أكثر المخلوقات ، لأنه لا يعرف من جميع العوالم ما يتجدد جنسه فى كل يوم سبعون ألفا غير ما ثبت عن الملائكة فى هذا الخبر »[1]

ولكن يبطل هذا الاستدلال لما هو معلوم الآن من أن جنس البشر يزيد كل يوم بالملايين ، أما نفى أن الملائكة أكثر المخلوقات فلا علم لنا به ، وهو جائز ، وجائز خلافه ، وليس لدينا نقل صحيح فى ذلك ، ولا تضطرنا الحاجة أو المصلحة إلى البحث فيه .

أما عن مكان البيت المعمور فاختلفوا فيه اختلافا كبيرا ، ذكر الحافظ فى (الفتح) ما رواه ابن إسحاق فى (مسنده) ، والطبرى وغير واحد من طريق خالد بن عرعرة عن على : « أنه سئل عن السقف المرفوع ، قال : السماء ، وعن البيت المعمور قال : بيت فى السماء بحيال البيت ، حرمته فى السماء كحرمة هذا فى الأرض ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ولا يعودون إليه » قال الحافظ : « ولابن مردويه عن ابن عباس نحوه وزاد : « وهو على مثل البيت الحرام لو سقط لسقط عليه » من حديث عائشة ونحوه بإسناد صالح » [2] إلى قوله :

(١) (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) ـــ صفحة ٢٥٥ / ٧ .

(٢) : (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) : صفحة ٣٥٦ / ٦ .

« وجاء عن الحسن ومحمد بن عباد بن جعفر : أن البيت المعمور هو الكعبة .

والأول ــ أى : أنه بحذائها فى السماء ــ أكثر وأشهر .

وأكثر الروايات أنه فى السماء السابعة .

ــ وجاء من وجه آخر عن أنس مرفوعا أنه فى السماء الرابعة ، وبه جزم شيخنا فى (القاموس)

ــ وقيل : هو فى السماء السادسة .

ــ وقيل : هو تحت العرش .

ــ وقيل : إنه بناه آدم لما أهبط إلى الأرض ، ثم رفع زمن الطوفان ، وكأن هذا شبهة من قال : إنه الكعبة .

ويسمى البيت المعمور الضراح أو الضريح [1] انتهى كلام الحافظ ، والله أعلم بما فيه .

---

(١) : (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) : صفحة ٣٥٦ / ٦ .

فرض الصلاة
ومراجعة موسى عليه السلام

فى رواية شريك بن عبدالله عند البخارى عن أنس قال : « فأوحى الله إليه فيما يوحى خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة ، ثم هبط به حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى فقال : يامحمد ، ماذا عهد إليك ربك ؟ قال : « عهد إلى خمسين صلاة كل يوم وليلة » قال موسى : « إن أمتك لا تستطيع ذلك ، فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم ، فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم إلى جبريل كأنه يستشيره فى ذلك فأشار إليه جبريل أن نعم إن شئت .. فَعَلَا به إلى الجبار ـــ تعالى وتقدس ـــ فقال وهو فى مكانه : « يارب خفف عنا فإن أمتى لا تستطيع هذا ، فوضع عنه عشر صلوات ، ثم رجع إلى موسى فاحتبسه ، فلم يزل يرده موسى إلى ربه حتى صارت خمس صلوات ، ثم احتبسه موسى عند الخمس ، فقال : يامحمد ، والله لقد راودت بنى إسرائيل قومى على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه ، فأمتك أضعف أجسادا وقلوبا وأبدانا

وأبصارا وأسماعا فارجع فليخفف عنك ربك . كل ذلك يلتفت النبى صلى الله عليه وسلم إلى جبريل ليشير عليه ، ولا يكره ذلك جبريل ، فرفعه عند الخامسة فقال : « يارب إن أمتى ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم فخفف عنا » فقال الجبار ــ تبارك وتعالى ــ : (يامحمد) قال : (لبيك وسعديك) قال : (إنه لا يبدل القول لدى ، كما فرضت عليك فى أم الكتاب فكل حسنة بعشر أمثالها ، فهى خمسون فى أم الكتاب ، وهى خمس عليك) فرجع إلى موسى فقال : كيف فعلت ؟ فقال : (خفف عنا ، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها) قال موسى : قد والله راودت بنى إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه ، فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ياموسى قد والله استحييت من ربى ــ عز وجل ــ مما أختلف إليه) قال : « فاهبط بسلام » .

وهذه رواية شريك التى نقدها العلماء وفحصها الحافظ فى (الفتح) فكان مجموع ما خالفت فيه روايات المشهورين عشرة أشياء ذكرها ثم زاد عليها خلافين (١) فكان منهم : « التاسع : تصريحه بأن امتناعه صلى الله عليه وسلم عن

---

(١) (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) : صفحة ٤٩٤ / ١٣ .

الرجوع إلى سؤال ربه التخفيف كان عند الخامسة ومقتضى رواية ثابت عن أنس أنه كان بعد التاسعة » .

« العاشر : قوله : (فَعَلَا به إلى الجبار ، فقال : وهو مكانه) وقد تقدم ما فيه » .

« الحادى عشر : رجوعه بعد الخمس والمشهور فى الأحاديث أن موسى ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ أمره بالرجوع بعد أن انتهى التخفيف إلى الخمس فامتنع » (والمحفوظ أنه صلى الله عليه وسلم قال لموسى فى الأخيرة : (استحييت من ربى) وهذا أصرح بأنه راجع فى الأخيرة) .

وقال الخطابى عن لفظة (وهو فى مكانه) : « تفرد بها شريك أيضا ، لم يذكرها غيره ... والمكان لا يضاف إلى الله تعالى ، إنما هو مكان النبى صلى الله عليه وسلم فى مقامه الأول الذى قام فيه قبل هبوطه » [1] .

فالله ـــ تعالى ـــ ليس فى مكان ، ولا له جهة يذهب إليها النبى صلى الله عليه وسلم فى كل مرة ولا يجوز أن نصور مسافة بينه ـــ سبحانه ـــ وبين موسى ـــ عليه السلام ـــ وإنما الصحيح على ما نفهمه ـــ ويؤيده كلام الخطابى السابق وغيره ـــ أن هذا المكان هو مكان المناجاة الذى اختاره الله ـــ

---

(١) المصدر السابق : صفحة ٤٩٢ / ١٣ .

عز وجل ـ ليناجى محمد ربه فيه ، فهو مكان من اختيار الله ، وليس مكانه هو سبحانه وتعالى .

قال النووى فى (الشرح) : « فرجعت إلى ربى » معناه : رجعت إلى الموضع الذى ناجيته فيه أولًا ، فناجيته فيه ثانيا »[1] وقال : « فلم أزل أرجع بين ربى ـ تبارك وتعالى ـ وبين موسى صلى الله عليه وسلم معناه : بين موضع مناجاة ربى . والله أعلم »[2] .

ونحو هذا المعنى قرأنا للشيخ محمد متولى الشعراوى قوله : « أما حديث الله ـ سبحانه وتعالى ـ فقد تم فى مكان المعجزة .. أو مكان الآيات .. التى أراد الله أن يكشف عنها لرسله .. فكشف الله لموسى آياته الكبرى فى الأرض .. وكلمه وهو على الأرض .. وكشف الله لمحمد ـ عليه السلام ـ آياته الكبرى فى الملكوت الأعلى .. وكلّمه عند سدرة المنتهى .. والله موجود فى كلا المكانين .. وفى كل مكان وزمان .. ومن هنا فإن الحديث لم يكن مرتبطا بتحديد مكان لله ـ سبحانه وتعالى ـ فهو موجود فى الأرض .. وموجود فى السماء ولكنه كان مرتبطا بكشف الله ـ سبحانه

---

(١) (صحيح مسلم بشرح النووى) : صفحة ٣٩١ / ١ .

(٢) نفس المصدر : صفحة ٣٩٢ / ١ .

وتعالى ــ لآياته الكبرى .. فعندما كشف الله آياته الكبرى لموسى فى الأرض .. كان الحديث وموسى على الأرض .. ومحمد ــ عليه السلام ــ رأى آيات ربه الكبرى فى الملكوت الأعلى .. فكان الحديث حيث المعجزة .. وهذا دليل على أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ موجود فى كل مكان .. وليس كما يقول بعض المشككين بأن الله قد رفع إليه محمدا ــ عليه السلام ــ ليكلمه فى الملكوت الأعلى وأن هذا تحديد لمكان يوجد فيه الله ــ سبحانه وتعالى ــ فالله بالآيتين ــ (كلام موسى على الأرض .. وكلام محمد فى الملكوت الأعلى) ــ إنما أعطانا البرهان والدليل على أنه موجود فى كل مكان .. وأنه يستطيع أن يخاطب من يشاء وكيف يشاء ، سواء تم ذلك على الأرض أو فى الملكوت الأعلى .. أو فى أى مكان فى ملك الله .. فالآية هنا دليل على أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ لا يحده مكان ولا زمان » [1].

هذا من ناحية لفظة (وهو فى مكانه) التى انفردت بها رواية شريك ، غير أنه من ناحية أخرى نجد هذه الرواية قد اشتركت فى وصف أمتنا بالضعف على اختلافات فى التعبير ،

---

(١) (معجزة القرآن) للشيخ محمد متولى الشعراوى طبعة كتاب اليوم ــ الجزء الثانى ــ صفحة ١٣٤ .

واختصت رواية شريك (الأجساد والقلوب والأسماع والأبصار ثم كرر الأبدان) بالضعف ولم يتطرق الشراح — حسب علمنا — إلى توضيح سبب ذلك أو معناه ، ولم يتطرق أحد إلى تفسير الاختلاف فى عدد الصلوات بين صلاتين لأمة موسى فرضهما ربى ابتداء — فلم يقوموا بهما — وبين خمسين صلاة لأمة محمد — (الأضعف أجسادا وقلوبا وأبدانا وأبصارا وأسماعا) — فرضهما ربى ابتداء ولم ينزل — سبحانه — عن عدد خمس صلوات ، وهو عدد أكبر من ضعف ما تقول الروايات إنه فرض على أمة موسى الأكثر قوة .

والآفةُ — فى رأينا — تأتى من النظر إلى الصلاة كعبء ثقيل يجب تخفيفه ، بينما الصلاة أصلًا صلة بين العبد وربه ، وفرصة متكررة لنيل الثواب ، ولمناجاة الكريم ، والاستعانة به على هموم الدنيا ؟ قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴾ [1] صدق الله العظيم

---

(١) سورة البقرة : الآية ٤٥ .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : وجعلت قرة عينى فى الصلاة [١].

لقد أتعبت روايات تخفيف الصلاة العلماء فى حل إشكالاتها ، حتى جنح بعضهم إلى ردها كلها بسبب تلك الإشكالات ، منهم الشيخ عبدالجليل عيسى قال : « ومسألة تخفيف الصلوات فيها روايات متعددة ، فهناك رواية ترى أن الرسول عندما طلب التخفيف أسقط الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ نصف الخمسين فى المرة الأولى ، وفى المرة الثانية أسقط نصف النصف الباقى وهناك رواية تقول : إن الله أسقط عشرا فعشرا أربع مرات ثم أسقط خمسا ، وهناك رواية تقول : إن الله أسقط خمسا فى كل مرة ، واختلاف الروايات هكذا يشكك فى صحة الحديث » [٢] ومنهم الدكتور أحمد شلبى قال :

« أولاً : إنها تصور الله سبحانه وتعالى ـــ كموسى ـــ فى موضع مادى يمشى له محمد ويعود لموسى ثم يرجع إليه ، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا [٣].

---

(١) رواه أحمد والنسائى والحاكم والبيهقى عن أنس وصححه الألبانى فى (صحيح الجامع الصغير) برقم ٣١٢٤ .

(٢) (موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية) د . أحمد شلبى ـــ الجزء الأول ـــ صفحة ٢٤٧ .

(٣) وقد حل العلماء إشكاله كما سبق .

ثانيا : تصور الله ــ تعالى ــ على غير ما هو معروف من وفرة المنح ، ومن الكرم العظيم فهى تصوره ينقص الخمسين إلى خمس وأربعين ، ثم ينقصها فى جولة أخرى إلى أربعين ، ثم إلى خمس وثلاثين .. ونحن نصرخ فى وجه من يقول ذلك القول بأن كرم الله تصوره آياته : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [1] و ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [2] ولا يمكن ــ إلا فى خيال مادى ــ أن تتم هذه الصورة ، تعالى الله عن ذلك .

ثالثا : أنها ترمى إلى وضع موسى فى موضع المعلم لمحمد ، ومحمد خاتم الأنبياء وأفضلهم وإمامهم . ومعلم البشرية والرسول الذى أرسل للناس جميعا ، وكان ــ عليه السلام ــ حينذاك قد تجاوز الخمسين من عمره .

رابعا : كيف يتصور العقل محمدا ذاهبا وعائدا عدة مرات بناء على طلب موسى والابن لا يطيع أباه إلى هذا المدى مهما كان فى ذلك من خير له .

واعتقادى أن الصلوات فرضها الله من أول الأمر خمسا فى العمل وخمسين فى الأجر ، أو فرضها خمسين فاستعطفه سيدنا

(١) سورة الأنعام : الآية ١٦٠ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٤٥ .

محمد رسول الله فاستجاب الله إليه وجعلها خمسا فى العمل وخمسين فى الأجر »[1].

قوبلت هذه الأفكار بعاصفة من النقد والاستنكار من منطلق الغيرة على أحاديث البخارى ومسلم ، واعتبار الطعن فى بعض أحاديثهما طعنا فيهما جميعا . وقد تلقتهما الأمة بالقبول واعتبر ذلك هجوما على السنة الشريفة ككل بما يوجب الدفاع عنها . ولكن قبل الشروع فى عرض بعض إجابات العلماء على الأفكار السابقة نستكملها أولًا بذكر السؤال الحائر أيضا حول الحكمة من اختصاص موسى بالذات بأمر المراجعة ، بينما إبراهيم — عليه السلام — هو الأولى بذلك لأنه الأقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] .

فى الإجابات على تلك التساؤلات كلها يصادفنا أولًا قول الإمام النووى فى (الشرح) عند تعرضه لاختلاف الروايات حول عدد مرات التخفيف قال : « المراد بحط الشطر هنا أنه حط فى مرات بمراجعات ، وهذا هو الظاهر . وقال القاضى

---

(١) (موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية) — صفحة ٢٤٠ / ١ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٦٨ .

عياض ــ رحمه الله ــ : (المراد بالشطر هنا الجزء وهو الخمس وليس المراد به النصف) وهذا الذى قاله محتمل ولكن لا ضرورة إليه ، فإن هذا الحديث الثانى مختصر لم يذكر فيه كَرَّات المراجعة والله أعلم» [1]وبهذا يكون النووى ممن يرى أن مرات المراجعة كانت تسعا .

وبخصوص الحكمة فى اختصاص موسى ــ عليه السلام ــ بأمر التخفيف يقول الحافظ ابن حجر العسقلانى فى (الفتح) : « قال القرطبى : الحكمة فى تخصيص موسى بمراجعة النبى صلى الله عليه وسلم فى أمر الصلاة لعلها لكون أمة موسى كلفت من الصلوات بما لم تكلف غيرها من الأمم ، فثقلت عليهم ، فأشفق موسى على أمة محمد من مثل ذلك ، ويشير إلى ذلك قوله : (إنى قد جربت الناس قبلك) انتهى .

وقال غيره : لعلها من جهة أنه ليس فى الأنبياء من له أتباع أكثر من موسى ، ولا من له كتاب أكبر ولا أجمع للأحكام من هذه الجهة ، مضاهيا للنبى صلى الله عليه وسلم فناسب أن يتمنى أن يكون له مثل ما أنعم به عليه ، من غير أن يريد زواله عنه . وناسب أن يطلعه على ما وقع له وينصحه فيما يتعلق به .

---

(١) (صحيح مسلم بشرح النووى) ــ صفحة ٣٩٨ / ١ .

ويحتمل أن يكون موسى لما غلب عليه فى الابتداء الأسف على نقص حظ أمته بالنسبة لأمة محمد حتى تمنى ما تمنى ، أن يكون استدرك ذلك ببذل النصيحة لهم ، والشفقة عليهم ليزيل ما عساه أن يتوهم عليه فيما وقع منه فى الابتداء .

« وذكر السهيلى : أن الحكمة فى ذلك أنه كان رأى فى مناجاته صفة أمة محمد صلى الله عليه وسلم فدعا الله أن يجعله منهم ، فكان إشفاقه عليهم كعناية من هو منهم » [1].

وفى موضع آخر من (الفتح) يقول الحافظ : « قال ابن أبى جمرة : (ويستفاد منه أن مقام الخلة مقام الرضا والتسليم ، ومقام التكليم مقام الإدلال والانبساط ، ومن ثم استبد موسى بأمر النبى صلى الله عليه وسلم بطلب التخفيف دون إبراهيم ــ عليه السلام ــ مع أن للنبى صلى الله عليه وسلم من الاختصاص بإبراهيم أزيد مما له من موسى لمقام الأبوة ورفعة المنزلة والاتباع فى الملة) وقال غيره : الحكمة فى ذلك ما أشار إليه موسى ــ عليه السلام ــ فى نفس الحديث من سبقه إلى معالجة قومه فى هذه العبادة بعينها وأنهم خالفوه وعصوه » [2].

---

(١) (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) ــ صفحة ٢٥٢ / ٧ .

(٢) صفحة ٢٥٨ / ٧ .

ومن المحدثين نختار هنا قول الشيخ على فريج حسنين فى مجلة (منبر الإسلام) [1] : « ولهذا كانت جمعية موسى بمحمد ـ عليهما السلام ـ فى السماء أكثر من مرة وجعل طريقه عليه دون غيره من الأنبياء والرسل ، واعترافه بأن التكليف الذى كلفه أمة محمد ـ عليه السلام ـ لا يطيقه بنو إسرائيل ، وذلك عندما علم من رسول الله أن الله فرض عليه وعلى أمته خمسين صلاة فى اليوم والليلة وتقبلها الرسول شاكرا لله رب العالمين ، وألح على رسول الله أن يطلب من ربه التخفيف عن أمته ، حتى بعد أن خفف الله عنا وجعلها خمسا وفى الأجر خمسين ـ ولم يرجع عن تكراره القول بطلب التخفيف لرسول الله ، إلا بعد أن قال له الرسول : (استحييت من ربى) وخاصة بعد أن سمع النداء : أمضيت فريضتى ، وخففت عن عبادى ، مايبدل القول لدى ، وما أنا بظلام للعبيد .

« وهذا اعتراف حاسم من سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ بأفضلية هذه الأمة واقتناع بأنها أحق بالزعامة والأمانة من أمته ، ولهذا أيضا كانت نصيحة موسى لمحمد ـ عليهما السلام ـ وتوصيته إياه ، وهو بذاته ما يحصل بين

---

(١) يرى الشيخ أن حكمة المعراج الأساسية هى تسلم الرسالة وانتقالها من بنى إسرائيل إلى بنى إسماعيل عليهما السلام .

قائدين إذا تنحى أحدهما عن القيادة لزميله ، فإنه يوصيه وينصحه ويبصره بما أفاد مُن تجارب حتى يكون على استعداد لما هو فى المستقبل ، وبهذا أيضا نلمح روح المباهاة بالأمة المحمدية ، والاعتداد بمكانتها ، وكأن الله يقول للملأ الأعلى : (إنى لو كلفت أمة محمد بهذا العمل الشاق المتواصل لقامت به طائعة ، وصبرت محتسبة ورابطت له رباط المؤمنين ، وأدته أداء المحسنين) وهذه تزكية للأمة وترشيح لها بأنها خير أمة أخرجت للناس » [1]. وتناول الأستاذ عبدالمعطى عبادة فى مقال له بمجلة (منبر الإسلام) أيضا مسألة المراجعة لتخفيف الصلوات فقال : « يرى بعض العلماء فى هذا التخفيف حمله على (التمثيل) فهو يمثل تخفيف الله عنا ، ورحمته بنا ، لاستبعاد أن يراجع الرسول ربه — وهو شديد الحياء منه — بضع مرات فى أمر واحد .

« ويرى آخرون : حمل الكلام على حقيقته ، لأنه ليس هناك ما يصرفه عن المعنى (الحقيقى) إلى (المجازى) ، والرسول صلى الله عليه وسلم مع حيائه من ربه حريص على

---

(١) مقال (الآية العظمى فى الإسراء والمعراج) مجلة (منبر الإسلام) عدد رجب ١٣٩٥ هـ الملحق : صفحة ٨٠ / ٨١ .

أمته ، رحيم بها ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[١]

« ولماذا لا نقول : (إن الله قد ألهم رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم أن يتجه إلى موسى الذى ألهم أن يقول له ما قال حتى تَحَصَّلَ هذا التخفيف عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن أمته لأن الله خبير بشدة حرصه عليها ، ودفع المشقة عنها وبهذا يكون الرسولان ـــ عليهما الصلاة والسلام ـــ قد استجابا للعلم الأزلى حتى يتم ما أراده الله) .

« ولنا أن نقول : (لو كان الأمر كذلك لفرض الله على رسوله وعلى أمته خمس صلوات فى اليوم والليلة ابتداء وبذلك لا يكون هناك ما يدعو إلى المراجعة .

ويرد على هذا بأن الله فرضها فى السماء ، وجاء فرضها على هذه الصورة حتى يتذكر المكلف رحمة الله به بتخفيفه عنه إذا حدثته نفسه بالتكاسل عنها ، فيؤديها راضى النفس ، تام الإيمان كامل الخشوع ، شكرا لله تعالى [٢].

---

(١) الآية : ١٢٨ من سورة التوبة .

(٢) المصدر السابق ـــ مقال بعنوان (بين الإسراء والمعراج ومنطق العلم الحديث) ـــ الملحق : صفحة ٩٧ / ٩٨ .

وأما الشيخ محمد متولى الشعراوى فلا يرى فى مراجعة موسى لمحمد ــ عليهما الصلاة والسلام ــ انتقاصا أو وصاية ، ويعترض على أخذ القصة بهذه الحساسية فيقول : « ما هى الوصاية ؟ هى أن تفرض الشيء الذى تريده ولو قهراً على صاحبه .. هل فرض موسى ــ عليه السلام ــ شيئا على الإسلام قهراً أو اختيارا ؟ .. لم يحدث ذلك .. وكانت هذه العبارة ــ عبارة الوصاية ــ تكون صحيحة لو أن موسى هو الذى خفف الصلاة من خمسين إلى خمس .. ولكن من الذى خفض عدد الصلوات ؟ .. إنه الله ــ جل جلاله ــ هو سبحانه وتعالى الذى فرض .. وهو ــ سبحانه وتعالى ــ الذى خفف .. فأين الوصاية والأمر كله من الله ؟ ! .

رسولنا صلى الله عليه وسلم عاد لمصدر التشريع ، ومنه أخذ الأمر ، ومنه كان التشريع ، فكيف يقال : إن هناك وصاية من أحد والأمر كله لله ؟ ! إذا كان هناك شيء يستدل به على تخفيف عدد الصلوات وإبقاء ثوابها دون أى نقصان فهو أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ كان رحيما بأمة محمد ــ عليه الصلاة والسلام ــ فأبقى الثواب كما هو لم ينقص مع تخفيف عدد الصلوات . إذن فالوصاية هنا هى لله ــ سبحانه وتعالى ــ وحده ... فهو ــ جل جلاله ــ شرع .. وهو

الذى خفف ولا يمكن أن يقال أى تفسير آخر » [1].

وفى أحد الآراء ما معناه أن موسى لما طلب الرؤية فقيل له ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ ظل على شوقه لأنوار التجلى الربانى فلما رآها على وجه المصطفى صلى الله عليه وسلم استوقفه ليتملاها ، وكان طلب الرجوع لغرض تكرار التجلى وتعداد التملى ، هذا رأى . والله سبحانه أعلم بمكنون نفس موسى عليه السلام .

وأما ما ذكرنا عن وصف أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالضعف فلا يستقيم إلا بفهمه على غير سبيل المقارنة بأمة موسى ، فلا يقال : أمة موسى أقوى من أمة محمد ، أو أمة محمد أضعف من أمة موسى ، بل يفهم التصريح الأسبق بضعف أمة محمد (أجساما وقلوبا وأسماعا وأبصارا وأبدانا) فى سياق فهمنا للحديث الشريف المتفق عليه : « خلق الله آدم على صورته [2]، وطوله ستون ذراعا ... فلم تزل الخلق تنقص بعده حتى الآن» [3].

---

(١) (المعجزة الكبرى : الإسراء والمعراج) ــ مكتبة الشعراوى الإسلامية ــ من إصدارات مؤسسة أخبار اليوم ــ القاهرة ١٩٩٠ ــ صفحتا ١٢٤ / ١٢٥ .

(٢) أى : على صورة آدم البشرية المعهودة .

(٣) رواه أحمد والشيخان عن أبى هريرة ، وأورده الألبانى فى سلسلة (الأحاديث الصحيحة وشىء من فقهها) ــ الجزء الأول ــ حديث رقم ٤٥٠ .

فأمة محمد خاتم النبيين هى آخر الأمم ، وبالتالى فهى أضعفهم لتأخر وجودهم ليس إلا ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ومشـــاهد أخـــرى

قلنا : إن المنهج القرآنى لايمنع من تقريب المعانى ــ التى هى فوق قدرتنا على الإدراك ــ من خلال تصوير حسى يمكننا إدراكه ، ومن خلال ما نألفه من موجودات فى حياتنا الدنيا ، وفى أحاديث الإسراء والمعراج نماذج عديدة لاتباع هذا المنهج العظيم ، ولكننا أحيانا لانكتشف هذه الحدود الدقيقة بين الصورة المضروبة للتمثيل والتقريب ، وبين الصورة المذكورة بحقيقتها مما يخفى علينا من أمور الغيب .

إن الطريقة المثلى إزاء هذه الصورة وتلك هو التسليم بما ثبتت صحته من الروايات ، على أن يحال مالا يعقل منها إلى أحد أمرين :

١ ــ إما إسنادها إلى القدرة الإلهية ، وهو ــ سبحانه ــ قادر على كل شيء .

٢ ــ وإما فهمها على أساس مانعرفه عن المنهج القرآنى فى

التقريب والتمثيل والتشبيه مراعاة لمداركنا المحدودة القاصرة ، وهذا مسلك مألوف عند العلماء القدامى والمحدثين .

نقل الحافظ فى (الفتح) فى مناسبة شرح قوله صلى الله عليه وسلم : (مابين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلارداء الكبرياء ، على وجهه) قول المازرى قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يخاطب العرب بما تفهم ويخرج لهم الأشياء المعنوية إلى الحس ليقرب تناولهم لها ، فعبر عن زوال الموانع ورفعه عن الأبصار بذلك » قال الحافظ : « وقال عياض : كانت العرب تستعمل الاستعارة كثيرا ، وهو أرفع أدوات بديع فصاحتها وإيجازها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾ [1] فمخاطبة النبى صلى الله عليه وسلم لهم برداء الكبرياء على وجهه ونحو ذلك من هذا المعنى ، ومن لم يفهم ذلك تاه ، فمن أجرى الكلام على ظاهره أفضى به الأمر إلى التجسيم ، ومن لم يتضح له وعلم أن الله منزه عن الذى يقتضيه ظاهرها إما أن يكذب نقلتها وإما أن يؤولها » [2].

قلت : عدم تكذيب النقلة يحتم التأويل ، وهذه خطة لابد منها مع الأحاديث الصحيحة التى لاتضرها العلة ، أما الأحاديث المعلولة فالأسلم ردها من الأصل .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٢٤ .

(٢) (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) : صفحة ٤٤١ / ١٣ .

فنحن نرى مثلا فى بعض الروايات تصوير الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما فى صورة بشعة ، ثم الاستشهاد بالآية الكريمة : ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [1] مع أنها آية مدنية لم تنزل إلا بعد الإسراء بسنين . وكذلك تصوير الذين يأكلون الربا بأقوام بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خر ، وذكر جبريل فى الرواية نص الآية : ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [2] وهى كذلك آية مدنية لابد وأن جبريل كان يعلم أنها لم تنزل بعد ، وفى رواية أخرى من روايات المعراج يقول الله تعالى : « **وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت عرش الرحمن لم أعطها نبيا قبلك** » **وخواتيم سورة البقرة مدنية كما هو معروف .**

ورأينا هو التوقف فى قبول هذه الروايات وغيرها حتى التحقق أولا من صحة سندها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا كما يفعل البعض من ترديد كل مايصادفه دون تحقيق ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من حدث عنى حديثا وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » والعياذ بالله .

---

(١) سورة النساء : الآية ١٠

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٧٥ .

وقد تطرق فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى إلى تفسير بعض المرائى التى رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان مما قاله فى ذلك : « وقد يتساءل بعض الناس .. كيف رأى رسول الله .. المتكاسل عن الصلاة ؟ .. مع أن الصلاة المكتوبة فى الإسلام لم تكن فرضت .. وكيف رأى كل مارأى ؟ .. مع أنه لم يأت زمانه بعد ؟ نقول : إن الله ــ سبحانه وتعالى ــ عالم الغيب .. كل شىء موجود فى علمه . وإذا كنا نحن البشر إذا أردنا أن نبنى عمارة .. جعلنا لها نموذجا مصغرا يسمى ماكيت ، وكلما كان المهندس بارعا ، كان هذا النموذج بالغ الدقة والتفاصيل ، فكيف بالله ــ سبحانه وتعالى ــ وهو المبدع الأعظم لهذا الكون ، عنده صورة لما سيحدث فى كونه ، من بداية الخلق إلى الخلود فى الجنة أو النار ، وما سيحدث بعد ذلك ، مما لايعلمه إلا الله . وإذا كان المهندس البشرى كلما كان بارعا ، قامت العمارة وفق النموذج الذى أعده لاتختلف عنه ، كذلك عمارة الكون تتم وفق علم الله القدير الذى لايغيب عنه شىء فى الأرض ولا فى السموات ، والتنفيذ هنا بقدرة الخالق ، ومادام الله ــ سبحانه وتعالى ــ وحده عنده غيب السموات والأرض ، ففى علمه كل شىء ــ وكما قلنا ــ فإن عنده ــ جل جلاله ــ أمورا يبديها ولايبتديها » (١) .

(١) (المعجزة الكبرى : الإسراء والمعراج) ــ صفحة ١١٠ / ١١١

ومن الروايات الغريبة ماذكرَه الحافظ ابن كثير عن الحافظ أبى نعيم الأصفهانى فى كتاب (دلائل النبوة) من طريق محمد بن عمر الواقدى عن مالك بن أبى الرجال عن عمر بن عبد الله عن ابن كعب القرظى ، فى حديث طويل يتحدث عن استدعاء قيصر لأبى سفيان صخر بن حرب من الشام ليسأله فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم كان من كلام أبى سفيان عن ذلك قوله : والله مامنعنى من أن أقول عليه قولا أسقطه من عينه إلا أنى أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها على ولا يصدقنى فى شيء . قال : حتى ذكرت له قوله ليلة أسرى به ، قال : فقلت : أيها الملك ألا أخبرك خبرا تعرف أنه قد كذب ؟ قال : وما هو ؟ قال : قلت : إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم فى ليلة فجاء مسجدكم هذا ، مسجد إيلياء ، ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح ، قال : وبطريق إيلياء عند رأس قيصر ، فقال بطريق إيلياء : قد علمت تلك الليلة . قال : فنطر إليه قيصر وقال : وماعلمك بهذا ؟ قال : إنى كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد ، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنى فاستعنت عليه بعمالى ، ومن يحضرنى كلهم معالجة فغلبنا ، فلم نستطع أن نحركه ، كأنما نزاول جبلا ، فدعوت إليه النجاجرة ، فنظروا إليه فقالوا : إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ولانستطيع أن نحركه حتي نصبح فننظر إليه

من أين أتى . قال : فرجعت وتركت البابين مفتوحين . فلما أصبحت غدوت عليهما ، فإذا الحجر الذى فى زاوية المسجد مثقوب ، وإذا فيه أثر مربط الدابة ، فقلت لأصحابى ماحبس هذا الباب الليلة إلا على نبى . وقد صلى الليلة فى مسجدنا » .

وواضح من هذه الرواية أثر الفكر المادى فيها فالباب لا يغلق كأنه لابد وأن يكون مفتوحا لاستقبال أرواح الأنبياء والملائكة ، أو كأن القدرة الإلهية التى أتت بجسد الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة لا تفتح له بابا مغلقا ، ثم ملاحظة البطريق لثقب فى الحجر بزاوية المسجد ، فهذا عمل مادى فى جسم مادى ، ولكن الأغرب أن يقول : وإذا فيه أثر مربط الدابة ، فأى أثر هذا ؟ .

وأى دابة يعني ؟ وما علمه بها أو بربطها ؟ وأعجب من ذلك كله قوله لأصحابه : ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبى . وهى كلمة إيمانية لوصدقت عنه لكان مقتضاها أن يعلن الشهادتين وأن يلحق ومن يصدقه من أصحابه الذين حضروا معالجة الباب بمحمد الرسول وبالمسلمين . وهذا ما لم يرد له ذكر فى كتب السيرة ، بل كان الأحرى أن يقتنع أبو سفيان بعد هذه الشهادة من البطريق بصدق محمد صلى الله عليه وسلم وان يعلن إسلامه فى أقرب فرصة فور عودته مثلا ، هذه كلها

غرائب ، والأغرب منها أن يقبل الحافظ ابن كثير وهو العالم المحقق هذه الرواية ويذكرها فى تفسيره قائلاً إن فيها (فائدة حسنة جليلة) : ولا حاجة إليه بها . بعدما ثبت ضعفها فهى من طريق محمد بن عمر الواقدى كما صرح ابن كثير نفسه ، والواقدى هذا ذكره الإمام الذهبى فى (الضعفاء والمتروكين) وقال : (محمد بن عمر بن واقد الواقدى ، قال النسائى : يضع الحديث ، وقال ابن عدى : أحاديثه غير محفوظة والبلاء منه . وقال الحافظ ابن حجر فى (التقريب) : (متروك مع سعه علمه) قال الألبانى فى (دفاع عن الحديث النبوى والسيرة) : يعنى أنه شديد الضعف فى الرواية [1] وهكذا فلا المتن ولا السند مما يعضد الحديث ، والواجب فى هذه الحالة رده كما أسلفنا ، خصوصا وأن محمد بن كعب القرظى تابعى مشهور ــ الإصابة ٣ / ٥١٧ ــ فالحديث مرسل .

إننا كما قلنا لسنا ضد التصوير الحسى على الإطلاق ، ولا نرى تأويل تلك الصور جميعا ، فبعضها مقبول على ظاهره ما صحت الرواية فيه ، وبعضها مما يحتمل التأويل ، كحادثة شق الصدر الثابتة بالرواية الصحيحة ، فقد قال عنها الحافظ فى

---

(١) (دفاع عن الحديث النبوى والسيرة) ــ محمد ناصر الدين الألبانى ــ دار الأرقم ــ بدون تاريخ ــ صفحة ــ ٢١ .

(الفتح) هى وأشباهها : « وجميع ما ورد فى شق الصدر ، واستخراج القلب ، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة ، مما يجب التسليم له دون التعرض لتصرفه عن حقيقته ، لصلاحية القدرة فلا يستحيل شىء من ذلك .

« قال القرطبى فى (المفهم) : لا يلتفت لإنكار الشق ليلة الإسراء لأن رواته ثقات مشاهير ثم ذكر نحو ما تقدم [1].

أما الإمام النووى فقد اتجه وجهة التأويل ، قال فى (الشرح) عن إفراغ الإيمان والحكمة من طست الذهب : « وأما جعل الإيمان والحكمة فى إناء وإفراغهما مع أنهما معنيان وهذه صفة الأجسام فمعناه ــ والله أعلم ــ أن الطست كان فيها شىء يحصل به كمال الإيمان والحكمة وزيادتهما ، فسمى إيمانا وحكمة لكونه سببا لهما ، وهذا من أحسن المجاز . والله علم » [2].

وهكذا جرب العلماء الأخذ بالظاهر كما جربوا التأويل وسلموا فى كل حالة بالعلم لله ــ سبحانه وتعالى ــ ولا مانع من الحذو حذوهم فى منهجهم السديد عند التعرض للصور المادية فى روايات الإسراء والمعراج : كشقِّ سقف البيت والملائكة لا يحتاجون إلى ذلك للدخول ، وكسماع صريف

(١) (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) صفحة ٢٤٥ / ٧ .

(٢) (صحيح مسلم بشرح النووى) ــ صفحة ٣٩٥ / ١ .

الأقلام ، وكأن كتابة الأقدار تتم بأقلام مادية يصدر عنها صريف مسموع ، وكما جاء فى رواية : « ولو شئت أن أمسَّ السماء لمسست» وكأن السماء سقف مادى يمكن تحسسه باليد وغيرها . وطريقتنا فى تناول هذه الأشياء قريبة مما قاله النووى فى (الشرح) عند شرحه (لصريف الأقلام) قال رحمه الله : « الأقلام التى هو تعالى يعلم كيفيتها .. وإن ما جاء من ذلك على ظاهره . لكن كيفية ذلك وصورته وجنسه مما لايعلمه إلا الله أو من أطلعه على شيء من ذلك من ملائكته ورسله . وما يتأول هذا ويحيله عن ظاهره إلا ضعيف النظر والإيمان . إذ جاءت به الشريعة المطهرة ودلائل العقول لا تحيله .

والله ـــ تعالى ـــ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد حكمة من الله تعالى وإظهارا لما يشاء من غيبه لمن يشاء من ملائكته وسائر خلقه ، وإلا فهو فى غنى عن الكتب والاستذكار سبحانه وتعالى » [1].

فالرواية متى صحت قبلت ، وأخذت على ظاهرها أو أولت بتأويل لا يتعارض مع الشرع ، كتأويل النووى ـــ رحمه الله ـــ للحكمة والإيمان فى طست الذهب ، مع التسليم بقدرة الله وعلمه .

---

(١) (صحيح مسلم بشرح النووى) ـــ صفحة ٣٩٧ / ١ .

وهذه الطريقة تتطلب بذل غاية ما فى الوسع أولًا فى التحقق من صحة الرواية ، إذ إن اعتقادنا الغالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكثر من ذكر الأحاديث عن معجزة الإسراء والمعراج بالشكل الذى نراه الآن ، لأنها لم تكن من المعجزات التى يراد بها التدليل على صدق النبوة ، فقد تمت ليلًا وسرا وبدون شهود إثبات ولأن عجائبها كانت فوق أى تصور مما يمكن لرجال عصره — عليه الصلاة والسلام — أن يصلوا إليه ، فهى آيات الله الكبرى ، كما أن هذه المعجزة كانت خاصنة أشد الخصوص بذات النبى — عليه الصلاة والسلام — وكان الغرض منها تجلية الآيات أمامه هو نفسه ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾ وقوله: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾

ورغم قلة الأحاديث التى نعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حدث بها عن معجزة الإسراء والمعراج ، إلا أن القصاص قد أكثروا فيها الروايات ، فوصلنا كَمٌّ ضخم من الروايات جمعها الذهبى — رحمه الله — فى مجلدين ، ويستطيع المتأمل لهذه الأحاديث الكثيرة أن يلمس لمسا ما فيها من حقيقة مشتركة أضيفت إليها زيادات كثيرة ، ودليلنا إلى معرفة الحقيقة ما ذكره الله — تعالى — فى أول سورة الإسراء وفى أول سورة النجم فى القرآن الكريم ، ولذلك موضع آخر فى هذا الكتاب إن شاء الله

في مصارعة الوهم

«بالروح أم بالروح والجسد؟»

رغم الاختلاف الكبير فى التأريخ لحادثة الإسراء والمعراج باليوم والشهر والسنة ، فقد استقر الحال على احتفال المسلمين فى معظم أقطارهم بذكرى الإسراء والمعراج فى السادس والعشرين من رجب من كل عام ، ولا تفوت المناسبة من غير سيل من الخطب الطويلة والمقالات والبرامج والشرح المعاد .

وفى هذا الخضم الهائل من التعليقات السنوية لابد وأن تثار دائما قضية مفتعلة تبدو وكأنها قضية خطيرة جداً ، وهى مسألة الإسراء : هل كان بالروح (مناما) ؟ أم كان بالروح والجسد ؟ والمعراج بأيهما كان ؟ .

تلقى المسألة فى تفصيل مطول ، ويتكرر الرد دائما بالحجة والدليل على جموع موهومة من المعتقدين فى الإسراء بالروح دون الجسد .

فما هو منشأ هذه القضية ؟ وكيف تأتَّى لها الاستمرار والانتشار طوال القرون ، ينقلها الخلف عن السلف ، ويدفعون بها كيد المتشككين الذين لم يحددوهم بالتعيين أبدا بقدر ما أعطوا لرأيهم من اهتمام . وقليل من الناس من تنبه إلى الحقيقة المؤسفة المتمثلة فى أن السبب الوحيد تقريبا فى تضخيم هذه المسألة هو مجرد تكرارها وزيادة القول فيها ، مما أعطى لها حجما أكبر بكثير من حقيقتها ، منهم الأستاذ سعيد محمد حسن مؤلف كتاب (حقائق الإسراء والمعراج) ، وهو كتاب قيم ، استفدنا من منهجه فى السرد التاريخى فى تتبعنا لفكرة الإسراء بالروح منذ نشأتها حتى عصرنا الحالى حيث وجدنا الحقيقة تفصح عن نفسها بكل لسان .

ذكرنا من قبل أن كتاب (السيرة النبوية) لابن إسحاق (المتوفى سنة ١٥١ هـ) هو أول كتب السيرة التى وضعت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وأشرنا إلى أنه عند وضع هذا الكتاب الأول لم يكن مصطلح الحديث قد ضبط ، ولم يكن الجرح والتعديل قد تبلور علما له أصوله ، وعلى ذلك لم يكن بوسع ابن إسحاق أن يتحرى علميا من صدق كل ما يصل إليه من أحاديث ، وللحق فإنه لم يكن مطالبا باتباع أصول علم لم يوضع بعد ، ومن هنا وجدت بعض الأساطير والإسرائيليات والأقوال الضعيفة سبيلها إلى كتاب (السيرة) الأول .

وكان ابن إسحاق (محمد بن إسحاق بن يسار) من أهل المدينة ، زار الاسكندرية سنة ١١٩ هـ ، وسكن بعدها بغداد حتى مات فيها ، وقيل : كان قَدَرِيًّا قال عنه ابن حبان : (لم يكن أحد بالمدينة يقارب ابن إسحاق فى علمه أو يوازيه فى جمعه ، وهو من أحسن الناس سياقا للأخبار) [1]ومع ذلك ضعفه المحققون من علماء الجرح والتعديل لنقله عن غير الثقات ، خصوصا إذا انفرد بما يرويه .

إن البحث عن نشأة القول بالإسراء بالروح يقودنا إلى الاعتقاد بأن ابن إسحاق هو أول من قال به ، قاله فى كتابه المذكور (السيرة النبوية) والذى يعتبر الكتاب الأم والمرجع لمعظم كتب السيرة من بعده ، حيث جاء فيه : « وحدثنى بعض آل أبى بكر : أن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم كانت تقول : ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن الله أسرى بروحه .» ثم يقول : « وحدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس : أن معاوية بن أبى سفيان كان إذا سئل عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كانت رؤيا من الله ـــ تعالى ـــ صادقة » [2] .

---

(١) (الأعلام) ـــ خير الدين الزركلى ـــ دار العلم للملايين ـــ بيروت ـــ طبعة خامسة ـــ ١٩٨٠ م ـــ صفحة ٢٨ / ٦ .

(٢) (سيرة النبى) لابن هشام ـــ دار الهداية ـــ القاهرة ـــ الجزء الثانى ـــ صفحتا ٥ ،٦ .

ولكن عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ فى وقت الإسراء والمعراج ـــ الذى وقع قبل الهجرة بعام على أرجح الأقوال ـــ كانت صغيرة جدا ، غير ضابطة للحديث ولم تكن قد أصبحت بعدُ أُما للمؤمنين فلم يدخل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا فى المدينة ، لم يضمهما فراش قبلها . يقول الشامى فى (سبل الهدى والرشاد) : « وأما ما يعزى لعائشة ـــ رضى الله عنها ـــ فلم يرد بسند يصلح للحجة ، بل فى سنده انقطاع وراو مجهول كما تقدم . وقال أبوالخطاب ابن دحية فى (التنوير) إنه حديث موضوع عليها . وقال فى (معراجه الصغير) : قال إمام الشافعية القاضى أبوالعباس بن سريج : هذا حديث لا يصح ، وإنما وضع ردا للحديث الصحيح » (١).

أما معاوية بن أبى سفيان المعزو إليه الحديث الآخر الذى أورده ابن إسحاق آنفا فقد كان فى وقت الإسراء والمعراج مشركا لم يدخل الإسلام بعد .. قال الشامى (٣ / ١٠٣) : ويعقوب ـــ يعنى ابن عتبة بن المغيرة الأخنس ـــ وإن كان ثقة ، إلا أنه لم يدرك معاوية فالحجة منقطعة (وفى خلاصة الخزرجى ص ٣٧٥ أن يعقوب توفى سنة ١٢٨ هـ بينما توفى معاوية سنة ٦٠) (٢).

(١ ، ٢) انظر : هامش (الآية الكبرى فى شرح قصة الإسراء) للسيوطى تحقيق محيى الدين مستو ـــ صفحتا ١٠٦ ، ١٠٧ .

الأمر ـــ إذن ـــ واضح شديد الوضوح فى انعدام الحجية بحديثى عائشة ومعاوية السابقين اللذين نرجح ـــ كما رجح المحققون ـــ أنهما منسوبان إليهما زورا ودَسًّا وأنهما على علاقة وثيقة بفكرة الإسراء بالروح نتيجة أو سببا ولا عجب بعد ذلك أن يهمل كلٌّ من البخارى ومسلم هذين الحديثين ، وأن يتابعهما على ذلك أئمة الحديث المعتبرون .

ولكن ابن إسحاق فى غيبة المنهج النقدى ـــ الذى أرساه علم مصطلح الحديث بعد وفاته ـــ ذكر الحديثين ، معقبا عليهما بقوله : « فلم ينكر ذلك من قولهما ، لقول الحسن : إن هذه الآية نزلت فى ذلك ، قول الله ـــ تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [1] ولقول الله ـــ تعالى ـــ فى الخبر عن إبراهيم ـــ عليه السلام أنه قال لابنه : ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾ [2] ثم مضى على ذلك ، فعرفت أن الوحى من الله يأتى الأنبياء أيقاظا ونياما .

« وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ـــ فيما بلغنى ـــ : (تنام عيناى وقلبى يقظان) والله أعلم أى ذلك

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٦٠ .

(٢) سورة الصافات : الآية ١٠٢ .

كان قد جاءه وعاين فيه ما عاين من أمر الله ، على أى حَالَيْهِ كان : نائما أو يقظان ، كل ذلك حق وصدق » [1] .

ولكن الآيتين ، وَصِلَتَهُمَا بالموضوع محل أخذ ورد بين العلماء ، فالرؤيا المقصودة فى الآية الأولى محمولة على أنها رؤياه صلى الله عليه وسلم لفتح مكة قبيل صلح الحديبية ، وتصديقها قول الله ـــ تعالى ـــ : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [2]

فقد كان المسلمون يرون ذلك قريبا فى عامهم ، فلما منعهم المشركون من دخول مكة ، وأمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالرجوع إلى المدينة ، افتتن بعضهم ، وتقول المنافقون الأقاويل ، فحلفوا تهكما ، والله ماحلقنا ولاقصرنا ولا رأينا المسجد الحرام ، وكانت فتنة ذكرتها الآية الكريمة .

ولكن على فرض أن المقصود بالرؤيا فى آية سورة الإسراء هى الإسراء والمعراج فعلا ، فليست بدليل كذلك على أنه كان

---

(١) (السيرة النبوية) لابن هشام ـــ صفحة ٦ / ٢ .

(٢) سورة الفتح : الآية ٢٧ .

مناما ، وقد ثبت من لغة العرب أن كلمة الرؤيا تأتى أيضا بمعنى الرؤية البصرية ، والاستدلال على ذلك مشهور فى كتب الإسراء جميعا ببيت الشعر الآتى :

وكبر للرؤيا وهشَّ فؤاده ... وبشر قلبا كان جمّاً بَلَابِلُه .

يقول فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى : « ويقولون : (الرؤيا) لاتستخدم إلا لما يرى فى المنام .. أما مايرى فى اليقظة ، فإننا نقول عنه (رؤية) .. نقول : إذا كان المقصود هنا رؤيا منامية فكيف تكون فتنة للناس ؟ يصدقها بعضهم ويكذبها بعضهم ؟ ! لو كانت رؤيا منامية .. فلا يمكن أن يناقشها أحد تصديقا أو تكذيبا كما بينا ، ونحن لايجب أن نأخذ بالشائع على ألسنة الناس . ولكننا إذا عدنا للغة العربية قبل أن ينزل القرآن .. نجد أن كلمة (الرؤيا) وردت أيضا للبصر .. عندما يتحدثون عن الأشياء الغريبة التى تشبه الحلم .. فإذا استخدمنا (رؤيا) بمعنى المشاهدة بالبصر .. فهذا لايتم إلا إذا رأينا أمامنا أمرا عجيبا .. وإلا لو كانت الرؤيا منامية ماكانت فتنة للناس .. فلا أحد يناقش الأحلام كذباً أو صدقاً » . (١)

---

(١) المعجزة الكبرى : الإسرا والمعراج ـــ صفحة ٤٩

أما الآية الأخرى ففيها تصريح الله ـــ تعالى ـــ بأن رؤيا أبى الأنبياء إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ كانت فى منامه ، ولو كان إسراء النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى المنام لذكر الله ـــ تعالى ـــ ذلك كما ذكر فى تلك الآية ، وكما ذكر أيضا صراحة فى قوله ـــ تعالى ـــ: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾[1]

إذن نخلص إلى أنه لا هذه الآية الكريمة ، ولاتلك مما يساعد ابن إسحاق فى إجازته لفكرة الإسراء بالروح أو فى المنام ، تلك الفكرة التى ظل المفسرون والعلماء عبر القرون ينقلونها ويردون عليها بنفس الردود تقريبا ، مما جعل المسألة فى النهاية تأخذ حجما ضخما ، كأنها قضية خطيرة تنقسم الأمة من حولها .

والحق أنه كما أشار الأستاذ سعيد محمد حسن فى كتابه فإن « القول بأن الإسراء والمعراج قد تما بالروح دون الجسد ، ماكان ـــ بما يعنيه من خروج على إجماع السلف ، ومخالفة ما عليه جمهور المسلمين ـــ ليحظى بمثل تلك المكانة ، ولاليثير كل ذلك الجدل ، لو لم يكن ابن إسحق هو الذى بدأه ، ولو لم يكن الذى احتواه هو كتاب (السيرة) »[2] .

---

(١) سورة الأنفال : من الآية ٤٣ .

(٢) (حقائق الإسراء والمعراج) ـــ مؤسسة روز اليوسف ـــ القاهرة ـــ ١٩٧٦م ـــ صفحة ٦٦ .

ثم وضعت الأحاديث بعد ذلك للرد على حديث عائشة الموضوع ، فنجد ابن سعد صاحب الطبقات (١٦٨هـ ــ ٢٣٠هـ / ٧٨٤م ــ ٨٤٥م) ــ صاحب الواقدى المؤرخ حتى قيل : كاتب الواقدى الذى ولد فى البصرة وعاش فى بغداد وتوفى فيها ــ نجده يذكر حديثا فى (طبقات الصحابة) نصه : « وقال بعضهم : فقد النبى صلى الله عليه وسلم تلك الليلة ، فتفرقت بنو عبد المطلب يطلبونه ويلتمسونه وخرج العباس بن عبد المطلب حتى بلغ ذا طوى فجعل يصرخ : يامحمد ، يامحمد ، فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم : لبيك ، قال : يابن أخى ، عنيت قومك منذ الليلة فأين كنت ؟ قال : أتيت من بيت المقدس . قال : فى ليلتك ؟ قال : نعم ، قال : هل أصابك إلاخير ؟ قال : ماأصابنى إلاخير » . وواضح أن هذا الحديث قد وضع خصيصا للرد على حديثى عائشة ومعاوية لإثبات فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينفيه حديث عائشة .

ويلاحظ الأستاذ سعيد محمد حسن « أن ابن سعد قد نقل بعض أخباره عن ابن اسحاق ، فهو إذن كان على صلة بكتاب (السيرة) لكنه لم ينقل عنه أو عن غيره الأقوال المنسوبة للسيدة عائشة أو لمعاوية ، لأنها لم تكن شائعة ، ولأنها ليست صحيحة ، كما أنه لم يناقش ماأثاره ابن إسحاق عن (الإسراء

بالروح) وهو ما يقطع بأن الإسراء بالروح لم يكن حتى نهاية القرن الثانى الهجرى قد تبلور وأصبح قضية مطروحة تستحق النقاش ، أو تساؤلا عاماً يحتاج إلى بيان وجدل » . [1]

فإذا أخذنا فى تتبع تطورات هذه القضية المفتعلة بعد ابن إسحاق وابن سعد حتى يومنا هذا وقفنا على الحقيقة المحزنة التى تظهر كيف وقف المسلمون يتجادلون بعنف فيما لاأصل له .

★ ★ ★

فها هو أبو جعفر : محمد بن جرير بن يزيد الطبرى (٢٢٤هـ ـــ ٣١٠هـ / ٨٣٩م ـــ ٩٢٣م) والذى قال عنه ابن الأثير : (أبو جعفر أوثق من نقل التاريخ) ينقل فى تفسيره الشهير (جامع البيان فى تفسير القرآن) مانسب إلى السيدة عائشة ومعاوية وتعقيب ابن إسحاق ، ولا يذكر فى هذا الشأن شيئا عن أحد آخر غيرهم ـــ أو هو فى الحقيقة قول ابن إسحاق وحده بعد أن ثبت عدم صحة الحديثين ، ثم تصدى ابن جرير للرد المفحم على (القائلين بالإسراء بالروح) مدعما رده بالحجج والبراهين الدامغة ، وأصبح رده على مر السنين فيما بعد منبعا وأصلا لمعظم الردود التالية ،

(١) المصدر السابق ـــ صفحة ٧٣ .

وجاء فيه قوله : « والصواب من القول فى ذلك عندنا : أن الله أسرى بعبده محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، كما أخبر الله عباده ، وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله حمله على البراق ، حين أتاه به ، وصلى هنالك بمن صلى من الأنبياء والرسل ، فأراه من الآيات

« ولا معنى لقول من قال : أسرى بروحه دون جسده ، لأن ذلك لو كان كذلك ، لم يكن فى ذلك ما يوجب أن يكون دليلًا على نبوته ، ولا حجة له على رسالته ، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك ، كانوا يدفعون به عن صدقه فيه ، إذ لم يكن منكرا عندهم ولا عند أحد من ذوى الفطرة الصحيحة من بنى آدم ، أن يرى الرائى منهم فى المنام ما على مسيرة سنة ، فكيف ما هو على مسيرة شهر أو أقل ؟ ! .

وبعد : فإن الله إنما أخبر فى كتابه أنه أسرى بعبده ، ولم يخبرنا أنه أسرى بروح عبده ، وليس جائزا لأحد أن يتعدى ما قاله الله إلى غيره ، فإن ظنَّ ظانٌّ أن ذلك جائز ، إذ كانت العرب تفعل ذلك فى كلامها ، كما قال قائلهم :

حسبت بغام راحلتى عناقا ... وما هى ويب غيرك بالعناق

« يعنى حسبت بغام راحلتى صوت عناق ، فحذف الصوت واكتفى منه بالعناق ، فإن العرب تفعل ذلك فيما يكون مفهوما مراد المتكلم منهم به من الكلام ، فأما فيما لا دلالة عليه إلا بظهوره ، ولا يوصل إلى معرفة مراد المتكلم إلا ببيانه : فإنها لا تحذف ذلك ، ولا دلالة تدل على أن مراد الله من قوله : ﴿ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ أسرى بروح عبده ، بل الأدلة الواضحة والأخبار المتتابعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله أسرى به على دابة يقال لها البراق ، ولو كان الإسراء بروحه ، لم تكن الروح محمولة على البراق إذ كانت الدواب لا تحمل إلا الأجسام . إلا أن يقول قائل : إن معنى قولنا : (أسرى بروحه) رأى فى المنام أنه أسرى بجسده على البراق فيكذب حينئذ بمعنى الأخبار التى رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جبريل حمله على البراق ، لأن ذلك إذا كان مناما على قول قائل هذا القول ولم تكن الروح عنده مما تركب الدواب ولم يحمل على البراق جسم النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم ـــ على قوله ـــ حمل على البراق ، لا جسمه ولا شىء منه ، وصار الأمر عنده كبعض أحلام النائمين ، وذلك دفع لظاهر التنزيل ، وما تتابعت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءت به الآثار عن الأئمة من الصحابة والتابعين » [1].

---

(١) انظر تفسير سورة الإسراء فى تفسير الطبرى : (جامع البيان) / (حقائق الإسراء والمعراج) صفحة ٧٦ .

يبدو هذا الرد كما لو كان موجها ضد أنصار قضية كبرى ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، فالرد كان موجها ضد رأى ابن إسحاق وحده لا غير ، ولم يذكر الطبرى نفسه أحداً آخر ممن يقول بالإسراء بالروح . وحتى لو قلنا : إن القول بالإسراء بالروح قد شاع قليلًا عند بعض الناس فى عهد الطبرى ، فإن عدم ورود أدلة عن هؤلاء القائلين بذلك معناه أن أساس القول لم يتغير ، فالفكرة مبنية دائما على رأى ابن إسحاق المدعم بالحديثين الضعيفين (بل الموضوعين) وذلك هو الحال حتى يومنا هذا .

إن تفنيد ابن جرير الطبرى للرأى القائل بالإسراء بالروح تفنيد رائع ، ورردده المفسرون والعلماء قرونا من بعده ، ولكن كان ضرره الوحيد أنه أظهر المسألة فى حجم أكبر بكثير من حقيقتها ، كما لو كانت قضية عامة ، وليست مجرد رأى شاذ منفرد .

* * *

بعد الطبرى نبغ فى الشرق الإسلامى الحافظ أبوبكر أحمد ابن الحسين بن على المعروف بالبيهقى (٣٨٤ هـ ــ ٤٥٨ هـ ٩٩٤ م ــ ١٠٦٦ م) فكان من أئمة الحديث ، نشأ فى بيهق بنيسابور ، ورحل إلى الكوفة وبغداد ومكة وغيرها ، وقال عنه الذهبى : لو شاء البيهقى أن يعمل لنفسه مذهبا يجتهد

فيه لكان قادرا على ذلك لسعة علومه ومعرفته بالاختلاف ، ومن أشهر تصانيفه الكثيرة كتاب « دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة » ورغم العدد الضخم الذى أورده من أحاديث الإسراء والمعراج ، وتصنيفه لها ، واصفا بعضها بالأحاديث الصحيحة والبعض الآخر بالأحاديث الضعيفة إلا أنه لم يذكر شيئا عن رأى ابن إسحاق ، ولا عن الحديثين المنسوبين إلى السيدة عائشة ومعاوية بن أبى سفيان ، وهو ما يوحى بأنهما لم يرقيا عنده إلى مرتبة الحديث الضعيف ، كما أن تجاهله لمسألة الإسراء بالروح أم بالروح والجسد قد يفيد فى الدلالة على أن المسألة لم تكن شائعة فى عصره فلم يرها جديرة بالذكر أو التعقيب والرد .

* * *

كذلك نبغ فى نيسابور وخراسان فى نفس الفترة تقريبا زين الإسلام : أبو القاسم : عبد الكريم بن هوازن بن عبدالملك بن طلحة النيسابورى القشيرى (٣٧٦ — ٤٦٥ هـ/ ٩٨٦ — ١٠٧٢ م) ، وكان زاهدا عالما بالدين ، صنف فى التفسير كتابه (التيسير فى التفسير) مازال مخطوطا وأيضا (لطائف الإشارات) تفسير مختصر فى ثلاثة أجزاء ، وهو مطبوع — طبعته الهيئة المصرية العامة للكتاب بتحقيق الدكتور إبراهيم بسيونى ، ولم يتطرق فيه القشيرى إلى مسألة

الإسراء بالروح مما يدل على عدم شيوعها أو شذوذ ذلك الرأى حينذاك أو عدم الاهتمام به على الأقل .

* * *

من بعدهما نبغ جارالله أبو القاسم : محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الزمخشرى (٤٦٧ ـــ ٥٣٨ هـ / ١٠٧٥ ـــ ١١٤٤ م) ، وكان من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والأدب ، وكان معتزلى المذهب ، شديد الإنكار على المتصوفة ، خصوصا فى تفسيره المشهور (بالكشاف) ، وفيه يذكر الزمخشرى رأى ابن إسحاق وما نسب للسيدة عائشة ومعاوية ولكنه لا يناقشه ، ولا يذكر رد الطبرى ، وإن أشار إلى أن أكثر الأقاويل بخلاف رأى ابن إسحاق ، فمما جاء فيه قوله : « اختلف فى أنه كان فى اليقظة أم فى المنام فعن عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ أنها قالت : والله ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه .وعن معاوية : إنما عرج بروحه . وعن الحسن : كان فى المنام رؤيا رآها . وأكثر الأقاويل بخلاف ذلك » [1].

* * *

---

(١) (الكشاف) المطبعة البهية المصرية صفحة ٥٤٠ / ١ (حقائق الإسراء والمعراج) : صفحة ٩٧ .

ثم ظهر نجم أبى بكر بن العربى : محمد بن عبدالله (٤٦٨ ـ ٥٤٣ هـ / ١٠٧٦ ـ ١١٤٨ م) الذى بلغ رتبة الاجتهاد فى علوم الدين ، وصنف الكتب الكثيرة فى الحديث والفقة والتفسير وغيره ، ويعتبر ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها ، ومن تصانيفه فى التفسير (أحكام القرآن) الذى تناول فيه مسألة الإسراء بالروح بالإنكار التام فقال : « قضى الله بحكمته وحكمه أن يتكلم الناس ، هل أسرى بجسد رسول الله صلى الله عليه وسلم أم بروحه ؟ ولولا مشيئة ربنا السابقة بالاختلاف لكانت المسألة أبين عند الإنصاف ، فإن المنكر لذلك لا يخلو أن يكون ملحدا ينكر القدرة ويرى أن الثقيل لا يصعد علوا ، وطبعه اسْتِفَالٌ فما باله يتكلم معنا فى هذا الفرع ، وهو منكر للأصل وهو وجود الإله وقدرته وأنه يصرف الأشياء بالعلم والإرادة لا بالطبيعة .

« وإن كان المنكر من أغبياء الملة ، يقر معنا بالإلهية والعلم ، والإرادة والقدرة على التصريف والتدبير والتقدير فيقال له : وما الذى يمنع من ارتقاء النبى فى الهواء بقدرة خالق الأرض والسماء ؟ فإن قال : لأنه لم يرد،قلنا له : قد ورد من كل طريق على لسان كل فريق » [1] .

---

(١) (أحكام القرآن) ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ١٩٨٧ م ـ صفحة ١١٩٢ / ٣ .

والمستشعَرُ من قوله السابق أن هذه المسألة قد اتسع نطاق الكلام فيها عما سبق .

* * *

يؤكد ذلك القاضى عياض ، أبوالفضل : ابن موسى بن عياض السبتى ، عالم المغرب وإمام أهل الحديث فى وقته (٤٧٦ ــ ٥٤٤ هـ / ١٠٨٣ ــ ١١٤٩ م) حين يهتم بالمسألة فى كتابه الشهير (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) ويرد فيه على رأى ابن إسحاق بما لا يختلف كثيرا عن مضمون رد الطبرى ، فيقول : « اختلف السلف والعلماء هل كان إسراؤه بروحه أو جسده على ثلاث مقالات : فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح ، وأنه رؤيا منام ، مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء حق ووحى ، وإلى هذا ذهب معاوية ، وحكى عن الحسن ، والمشهور عنه خلافه ، وإليه أشار محمد بن إسحاق وحجتهم قوله ــ تعالى ــ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ وما حكوا عن عائشة ــ رضى الله عنها :ــ (ما فقدت جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وقوله : (بينما أنا نائم) وقول أنس : وهو نائم فى المسجد ... وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه إسراء بالجسد وفى اليقظة ، وهذا هو الحق ، وهو قول ابن عباس وجابر ..... وجماعة عظيمة من المسلمين .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٦٠ .

« وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس ، وإلى السماء بالروح ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ فجعل ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ غاية الإسراء .... قال هؤلاء : لوكان الإسراء بجسده إلى زائد عن المسجد الأقصى لذكره فيكون أبلغ فى المدح .

والحق من هذا والصحيح ـــ إن شاء الله ـــ أنه إسراء بالجسد والروح فى القصة كلها ، وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة وليس فى الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة إذ لو كان مناما لقال (بروح عبده) ولم يقل (بعبده) ولو كان مناما لما كانت فيه آية ولا معجزة ، ولما استبعده الكفار ولا كذبوه فيه ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافتتنوا به ، إذ مثل هذا فى المنامات لا ينكر .. وأما قول عائشة : (ما فقدت جسده) فعائشة لم تحدث به عن مشاهدة ، لأنها لم تكن حينئذ زوجة ولا فى سن من يضبط :. فإذا لم تشاهد ذلك عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ دل على أنها حدثت بذلك عن غيرها فلم يرجح خبرها على خبر غيرها .. فليس حديث عائشة بالثابت ، والأحاديث الأخر أثبت ....

(١) سورة الإسراء : من الآية ١ .

وأيضا فقد روى فى حديث عائشة : (ما فقدت ...) ولم يدخل بها النبى صلى الله عليه وسلم إلا بالمدينة ، وكل هذا يوهنه » [1].

* * *

من بعد ذلك ظهر فى بغداد نجم أبى الفرج الجوزى : عبدالرحمن بن على بن محمد (٥٠٨ ــ ٥٩٧ هـ) (١١١٤ ــ ١٢٠١ م) ، وكان علّامة عصره بحرا فى علوم الحديث والتاريخ صنف ما يقرب من ثلاثمائة مصنف ، من أشهرها كتابه (صفوة الصفوة) ، الذى لم يذكر فيه شيئا عن الخلاف المزعوم فى كيفية الإسراء ، وهل كان بالروح وحدها أم معها الجسد ولم يذكر رأى ابن إسحاق ولا أسانيده المعروفة وبالتالى لم يوجد المجال لاستعراض رد الطبرى وكأن المسألة برمتها مما لايستحق الذكر فى نظر ابن الجوزى ــ رحمه الله ــ وجزاه الله خيرا ، إذ نأى بالمسلمين عن الخوض فيما لا يعنيهم ، وحرص على إحدى روايات أنس بن مالك التى تصف الإسراء والمعراج باعتدال ، معرضا عن الروايات المغالية فى وصف أدق التفاصيل .

* * *

---

(١) الجزء الأول من (الشفا بتعريف حقوق المصطفى صفحة ١٤٠) (حقائق الإسراء والمعراج) ــ صفحتا ٩٩ ، ١٠٠ .

ثم نلتقى بعد ذلك بأبى عبدالله : فخر الدين الرازى : محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين (٥٤٤ ــ ٦٠٦ هـ / ١١٥٠ ــ ١٢١٠ م) ، الواعظ والعالم البارع باللغتين العربية والفارسية ، ومن تصانيفه (مفاتيح الغيب) فى تفسير القرآن الكريم ثمانى مجلدات ، والذى رد فيه ــ لأول مرة ــ على فكرة الإسراء بالروح بما يختلف عن رد الطبرى ، إذ حاول الاستفادة من معطيات علم الفلك والهندسة على عهده فى إثبات إمكانية الإسراء بالجسد وذكر قدرة الذى عنده علم من الكتاب على نقل عرش بلقيس بإذن الله إلى سليمان فى لمح البصر وسرعة الضوء ، ومما جاء فى تناوله لهذه المسألة قوله : « المسألة الثانية : اختلف فى كيفية ذلك الإسراء ، فالأكثرون من طوائف المسلمين اتفقوا على أنه أسرى بجسد رسول الله صلى الله عليه وسلم والأقلون قالوا : إنه ما سرى إلا بروحه ، حكى عن محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره عن حذيفة أنه قال : ذلك رؤيا وأنه ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما أسرى بروحه ، وحكى هذا القول أيضا عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ وعن معاوية ــ رضى الله عنه ــ واعلم أن الكلام فى هذا الباب يقع فى مقامين : أحدهما فى إثبات الجواز الفعلى ، والثانى فى الوقوع .

أما المقام الأول وهو إثبات الجواز الفعلى ـــ فنقول : الحركة الواقعة فى السرعة إلى هذا الحد ممكنة فى نفسها ، والله تعالى قادر على جميع الممكنات وذلك يدل على أن حصول الحركة فى هذا الحد من السرعة غير ممتنع فنفتقر هنا إلى بيان مقدمتين :

المقدمة الأولى : فى إثبات أن الحركة الواقعة إلى هذا الحد ممكنة فى نفسها ويدل عليه وجوه :

الأول : أن الفلك الأعظم يتحرك من أول الليل إلى آخره ما يقرب من نصف الدور ، وقد ثبت فى الهندسة أن نسبة القطر الواحد إلى الدور نسبة الواحد إلى ثلاث وسبع ، وبتقدير أن يقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتفع من مكة إلى فوق الفلك الأعظم فهو لم يتحرك إلا بمقدار نصف القطر ، فلما حصل فى ذلك القدر من الزمان حركة نصف الدور ، فكان حصول الحركة بمقدار نصف القطر أولى بالإمكان ، فهذا برهان قاطع على أن الارتقاء من مكة إلى ما فوق العرش فى مقدار ثلث من الليل أمر ممكن فى نفسه ، وإذا كان كذلك فإن حصوله فى كل الليل أولى بالإمكان والله أعلم .

الوجه الثانى : وهو أنه ثبت فى الهندسة أن قرص الشمس يساوى كرة الأرض مائة وستين وكذا مرة ، ثم إنا نشاهد أن

طلوع القرص يحصل فى زمان لطيف سريع ، وذلك يدل على أن بلوغ الحركة في السرعة إلى الحد المذكور أمر ممكن فى نفسه .

الوجة الثالث : أنه كما يستبعد فى العقل صعود الجسم الكثيف من مركز العالم إلى ما فوق العرش فكذلك يستبعد نزول الجسم اللطيف الروحانى من فوق العرش إلى مركز العالم ، فإن كان القول بمعراج محمد صلى الله عليه وسلم فى الليلة الواحدة ممتنعا فى العقول ، كان القول بنزول جبريل ــ عليه السلام ــ من العرش إلى مكة فى اللحظة الواحدة ممتنعا ، ولو حكمنا بهذا الامتناع ، كان ذلك طعنا فى نبوة جميع الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ والقول بثبوت المعراج فرع على تسليم جواز أصل النبوة فثبت أن القائلين بامتناع حصول حركة سريعة إلى هذا الحد يلزمهم القول بامتناع نزول جبريل ــ عليه السلام ــ فى اللحظة من العرش إلى مكة ، ولما كان ذلك باطلًا كان ما ذكروه أيضا باطلًا » [1] .

* * *

---

(١) (مفاتيح الغيب) ــ المطبعة الأزهرية ــ صفحتا ٣٧٨ و ٣٧٩ ، (حقائق الإسراء والمعراج) ١٠١ / ١٠٢ .

ثم نبغ أبو عبدالله القرطبى : محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح الأنصارى الأندلسى الذى حضر إلى مصر من قرطبة حيث سكن منية خصيب شمال أسيوط حتى توفى فيها سنة (٦٧١ هـ / ١٢٧٣ م) وهو عَلَمٌ يشار إليه بالبنان فى علوم التفسير والفقة والحديث ، وأشهر تصانيفه كتاب (الجامع لأحكام القرآن) عشرون جزءا ، والذى تعرض فيه إلى مسألة الإسراء بالروح ، ذاكرا قول ابن إسحاق مفندا له بنفس رد الطبرى تقريبا ، ومضعفا حديثى عائشة ومعاوية وقد صرح بأن هذا القول مما اختلف فيه (السلف والخلف) ، ثم قال فى آخر رده : « وقد اعترض قول عائشة ومعاوية .... بأنها كانت صغيرة لم تشاهد ، ولا حدثت عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وأما معاوية فكان كافراً فى ذلك الوقت غير مشاهد للحال ، ولم يحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم » [١].

* * *

نلتقى بعد ذلك بالإمام الحافظ أبى زكريا محيى الدين : يحيى بن شرف بن مرى حسن بن حسين بن حزام النووى (٦٣١ ــ ٦٧٦ هـ / ١٢٣٣ ــ ١٢٧٧ م) صاحب

---

(١) (الجامع لأحكام القرآن) ــ دار الغد العربى ــ القاهرة ــ صفحة ٣٩٣٦ / ٥ .

شرح صحيح مسلم (المنهاج فى شرح صحيح مسلم) وصاحب (رياض الصالحين) والتصانيف الكثيرة جدا فى الفقة والحديث وغيرهما ، يقول فى (المنهاج) : « اختلف الناس فى الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم »[1] ثم يذكر إجماع معظم السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين أنه أسرى بجسده صلى الله عليه وسلم معضدا له ، ولكن تعبيره عن اختلاف الناس قد يدل على أن المسألة لم يعد من الممكن تجاهلها فى عصره ، وأنها مثار حديث حولها ولكن يلاحظ أيضا أن أحداً بعينه لم يتبنَّ رأى ابن إسحاق ، وأن كل العلماء يذكرون الخلاف ويردون على ابن إسحاق ويسيرون فى ذلك على وتيرة واحدة ، واحداً تلو الآخر فهى ضجة بلا طحن ، لأن أحداً لم يوافق ابن إسحاق من هؤلاء ليحتاج إلى إقناع وأدلة كما يفعلون .

* * *

بعدها صعد نجم أبى سعيد ناصر الدين البيضاوى : عبدالله ابن عمر بن محمد بن على الشيرازى ، الذى اختلفوا فى تاريخ وفاته ما بين سنة ٦٨٥ هـ أو ٦٩١ هـ ، وكان قاضيا مفسرا عظيما ، له تصانيف كثيرة منها (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) و(طوالع الأنوار) فى التوحيد ، وغيرهما .

---

(١) (صحيح مسلم بشرح النووى) — صفحة ٣٨٧ / ١ .

تناول فى (أنوار التنزيل) مسألة الإسراء بالروح وقلد الرازى فى محاولة الرد اعتمادا على معطيات فلكية وهندسية مما توفر لديه فى عصره ، فقال : « اختلف فى أنه كان فى المنام أو فى اليقظة ، بروحه أو بجسده . والأكثرون على أنه أسرى بجسده إلى بيت المقدس ثم عرج به إلى السموات حتى انتهى إلى سدرة المنتهى ولذلك تعجبت قريش منه واستحالوه . والاستحالة مدفوعة بما ثبت فى الهندسة أن ما بين طرفى قرص الشمس ضعف ما بين طرفى كرة الأرض مائة ونيفا وستين مرة ، ثم إن طرفها الأسفل يصل موضع طرفها الأعلى فى أقل من ثانية . وقد برهن فى الكلام أن الأجسام متساوية فى قبول الأعراض وأن الله قادر على كل الممكنات فيقدر أن يخلق مثل هذه الحركة السريعة فى بدن النبى صلى الله عليه وسلم أو فى ما يحمله ، والتعجب من لوازم المعجزات » (١)

* * *

أما أبو البركات : عبدالله بن أحمد بن محمود النسفى — المتوفى سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م المفسر صاحب التصانيف فى شتى العلوم الدينية فقد عرض كذلك لنفس المسألة فى تفسيره

---

(١) تفسير البيضاوى — صفحة ٦٨٨ / ١ : (حقائق الإسراء والمعراج) — صفحة ١٠٩ .

المسمى (بمدارك التنزيل وحقائق التأويل) ثلاثة مجلدات ، وكان رده أيضا مبنيا فى عناصره على ما سبق أن قاله الطبرى رحمه الله .

* * *

كذلك أبوحيان : محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان الغرناطى الأندلسى (٦٥٤ ـــ ٧٤٥ هـ / ١٢٥٦ ـــ ١٣٤٤ م) وهو من كبار العلماء باللغة والتفسير والحديث والتراجم ، ومن أشهر كتبه (البحر المحيط) ثمانية مجلدات ، أورد فيه نفس الحديث السابق عن الإسراء بالروح ، ورد بنفس الردود ، ومما جاء فيه قوله : « قيل : وما روى عن عائشة ومعاوية أنه كان مناما فلعله لايصح عنهما ، ولو صح لم يكن فى ذلك حجة ، لأنهما لم يسندا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حدثا به عنه » .

* * *

وجاء من بعد ذلك العلامة الحافظ ابن قيم الجوزية ، وهو شمس الدين أبوعبدالله : محمد بن أبى بكر الزرعى الدمشقى ، تلميذ ابن تيمية ـــ رحمهما الله ـــ وأستاذ ابن كثير المفسر ، قال عنه الشوكانى : كان متقيدا بالأدلة الصحيحة ، وقال ابن حجر : كان جرىء الجنان واسع العلم ، عاش ما بين ٦٩١

هـ و ٧٥١ هـ وله تصانيف كثيرة منها : (زاد المعاد فى هدى خير العباد) ذكر فيه أن هناك قولين فى الإسراء بالروح أو بالروح والجسد ، وحاول التوفيق بينهما بالقول : إن الإسراء بالروح ليس معناه (الرؤيا) قال : « ينبغى أن يعلم الفرق بين أن يقال : كان الإسراء مناما وبين أن يقال كان بروحه دون جسده . وبينهما فرق عظيم . وعائشة ومعاوية لم يقولا : كان مناما ، وإنما قالا : أسرى بروحه ولم يفقد جسده وفرق بين الأمرين ؛ فإن ما يراه النائم قد يكون أمثالا مضروبة للمعلوم فى الصور المحسوسة فيرى كأنه قد عرج به إلى السماء أو ذهب به إلى مكة وأقطار الأرض وروحه لم تصعد ولم تذهب ، وإنما ملك الرؤية ضرب له المثال ، والذين قالوا : عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم طائفتان :

طائفة قالت : عرج بروحه وبدنه ، وطائفة قالت : عرج بروحه ولم يفقد بدنه ، هؤلاء لم يريدوا أن المعراج كان مناما ، وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أسرى بها ، وعرج بها حقيقة وباشرت من جنس ماتباشر بعد المفارقة ، وكان حالها فى ذلك كحالها بعد المفارقة فى صعودها إلى السموات سماء سماء حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة فتقف بين يدى الله — عز وجل — فيأمر فيها بما يشاء ثم تنزل إلى الأرض . والذى كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء أكمل مما يحصل للروح عند المفارقة .

« ومعلوم أن هذا أمر فوق ما يراه النائم ، لكن لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مقام خرق العوائد حتى شق بطنه وهو لايتألم لذلك . عرج بذات روحه المقدسة حقيقة من غير إماتة ، ومن سواه لا ينال بذات روحه الصعود إلى السماء إلا بعد الموت والمفارقة » [1].

ومن المفارقات أن ابن قيم الجوزية الذى يبدو هكذا فى صورة من يناصر الإسراء بالروح ، هو فى الحقيقة من أنصار الإسراء بالروح والجسد ، وقد بدأ حديثه عن الإسراء والمعراج بقوله : « ثم أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم بجسده على الصحيح » .

كما يلاحظ أن ابن قيم الجوزية لم يقف أيضا عند تصريح ابن إسحاق بقصده من (الإسراء بالروح) قال : « فلم ينكر ذلك من قولهما لقول الحسن : إن هذه الآية نزلت فى ذلك ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ [2] ﴾ ولقول الله ـــ تعالى ـــ فى الخبر عن إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ إذ قال لابنه : ﴿ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ [3] ﴾ ثم مضى على ذلك فعرفت أن الوحى من الله يأتى الأنبياء أيقاظا ونياما » ثم

---

(١) (زاد المعاد فى هدى خير العباد) ـــ تحقيق شعيب وعبدالقادر الأرنؤوط ـــ مؤسسة الرسالة ـــ بيروت ـــ ط ٨ ـــ ١٩٨٥ م ـــ صفحة ٤٠ / ٣ .

(٢) سورة الإسراء : الآية رقم ٦٠ .

(٣) سورة الصافات : الآية رقم ١٠٢ .

قال : « وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى يقول : تنام عيناى وقلبى يقظان » والله أعلم أى ذلك كان قد جاءه ، وعاين فيه ما عاين من أمر الله على أى حالَيْهِ كان : نائما أو يقظان كل ذلك حق وصدق » فهذا واضح فى أن مقصود ابن إسحاق من الإسراء بالروح ليس هو انفصالها فى الرحلة عن الجسد بل إنه رؤيا منامية صادقة كرؤيا إبراهيم عليه السلام .

* * *

ثم يأتى زمان عماد الدين أبى الفداء : إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى (٧٠١ — ٧٧٤ هـ / ١٣٠٢ — ١٣٧٣ م) العلامة الحافظ المؤرخ صاحب (البداية والنهاية) أربعة عشر مجلدا ، و(تفسير القرآن العظيم) عشرة أجزاء وغيرهما من المصنفات العديدة . ذكر فى تفسيره رأى ابن إسحاق ضمن ما ذكر ، وذكر ما نسب إلى السيدة عائشة وإلى معاوية ، وضمن تعقيبه على ذلك وذاك نفس أفكار الطبرى تقريبا وصرح باستفادته من رد الطبري فقال : « وقد تعقبه أبوجعفر بن جرير فى تفسيره بالرد والإنكار والتشنيع بأن هذا خلاف ظاهر سياق القرآن وذكر من الأدلة على رده بعض ما تقدم والله أعلم » [١]

---

(١) (تفسير القرآن العظيم) — دار الأندلس — صفحة ٢٧٩ / ٤ .

ومع ذلك نجده فى (البداية والنهاية) متأولًا لحديث عائشة ــ رضى الله عنها ــ لا راداً له قال : « وقد توقف ابن إسحاق فى ذلك وجوز كلا من الأمرين من حيث الجملة ، ولكن الذى لا يشك فيه ولا يتمارى أنه كان يقظانا لا محالة كما تقدم وليس مقتضى كلام عائشة ــ رضى الله عنها ــ : أن جسده صلى الله عليه وسلم ما فقد وإنما كان الإسراء بروحه) أن يكون مناما كما فهمه ابن إسحاق ، بل وقع الإسراء بروحه حقيقة وهو يقظان لا نائم وركب البراق وجاء بيت المقدس وصعد السموات وعاين ما عاين حقيقة ويقظة لا مناما . لعل هذا مراد عائشة أم المؤمنين ــ رضى الله عنها ــ ومراد من تابعها على ذلك لا ما فهمه ابن إسحاق من أنهم أرادوا بذلك المنام . والله أعلم » [1].

* * *

وأما الشيخ محمد بن علاء الدين على بن محمد بن أبى العز الحنفى (٧٣١ ــ ٧٩٢ هـ) فقد تطرق إلى مسألة الإسراء بالروح فى شرحه للعقيدة الطحاوية ، وذكر مثل ما قاله البيضاوى وابن قيم الجوزية وقبلهما ابن جرير الطبرى ــ رحمهم الله ــ ولم يزد على أقوالهم شيئا تقريبا .

---

(١) (البداية والنهاية) ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ طبعة أولى ــ ١٩٨٥ ــ صفحة ١١٢ و١١٣ / ٣ ــ المجلد الثانى .

وكانت القضية قد تكرر طرقها ، وأصبح مألوفا الكلام عنها فى ذلك الوقت كلما تطرق الشراح والمفسرون إلى الحديث عن قصة الإسراء والمعراج ، ولذلك لم يكن مستغربا أن يتطرق إليها الشيخ أبو إسحاق محمد بن إبراهيم النعمانى الشافعى (٨١٩ هـ) فى كتابه (السراج الوهاج فى الإسراء والمعراج) ولكن كالعادة لم يكن هناك أى جديد فنفس الرأى لابن إسحاق ونفس الحديثين لعائشة ومعاوية ، ونفس الردود المنقولة سالفا عن سالف .

* * *

وحتى المؤرخ الشهير تقى الدين المقريزى : أحمد بن على ابن عبدالقادر الحسينى العبيدى (٧٦٦ ــ ٨٤٥ هـ / ١٣٦٥ ــ ١٤٤١ م) صاحب (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) المعروف (بخطط المقريزى) لا يزيد عن ذكر القول بأن هناك رأيا أن الإسراء كان بالروح ، دون أن يعلق عليه أو يبدى هو نفسه رأيه أو يصدر ردا .

* * *

وتوالى مرور العلماء على الرأى الذى أثاره ابن إسحاق وحده من قبل وتسبب نقل هذا الرأى واستطرادات الرد عليه فى أن يأخذ حجما أكبر بكثير من حجمه ، رغم عدم استناده إلى أى دليل غير الحديثين اللذين لم يصحا عند البخارى

ومسلم أو غيرهما ، حتى بدا كأن هناك (خلافا) بين العلماء ، وكيف لا ، والعلماء من بعد المقريزى مستمرون فى التعرض للمسألة الخطيرة المفتعلة .

* * *

فهذا أبوالفضل شهاب الدين ابن حجر : أحمد بن على بن محمد الكنانى العسقلانى (٧٧٣ ـــ ٨٥٢ هـ / ١٣٧٢ ـــ ١٤٤٩ م) ، وهو من أئمة العلم والتاريخ ، صاحب التصانيف التى لا مثيل لها فى العلوم المختلفة ، يقول فى شرحه لصحيح البخارى المسمى (بفتح البارى بشرح أحاديث البخارى) :

« وقد تمسك بكلام ابن عباس ـــ الذى يفسر فيه آية : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ على أنها رؤيا عين [1] أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء من قال : إن الإسراء كان فى المنام ، ومن قال : إنه كان فى اليقظة . فالأول : أخذ من لفظ (الرؤيا) قال : لأن هذا اللفظ مختص برؤيا المنام . ومن قال بالثانى : (أريها ليلة الإسراء) ، والإسراء إنما كان باليقظة لأنه لو كان مناما

(١) سورة الإسراء : الآية رقم ٦٠ .

(٢) (وقد سبق إثبات أن ذلك لم يكن مراد ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ

ماكذبه الكفار فيه ، ولافيما هو أبعد منه ، وإذا كان ذلك فى اليقظة ، وكان المعراج فى تلك الليلة ، تعين أن يكون فى اليقظة أيضا إذ لم يقل أحد إنه نام لما وصل إلى بيت المقدس ثم عرج به وهو نائم ، وإذا كان فى اليقظة فإضافة الرؤيا إلى العين للاحتراز عن رؤيا العين ، فقال : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ. لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ (1)

وهذا جلال الدين : عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سابق الدين السيوطى (٨٤٩ ــ ٩١١هـ / ١٤٤٥ ــ ١٥٠٥م) الإمام الحافظ المؤرخ ــ الملقب بابن الكتب ، صاحب ما يقرب من ٦٠٠ مصنف ، يذكر فى كتابه المعنون (بالآية الكبرى فى شرح قصة الإسراء) نفس المسألة ، مرجحا الإسراء بالجسد بعد استعراض أدلة الفريقين المختلفين ، وحتى ذلك الوقت فإن أدلة المخالفين لذلك كالعادة لم تكن تعدو ماقاله ابن إسحاق استنادا على الحديثين المحظوظين .

* * *

ثم يأتى بعد السيوطى بزمان أبو الفرج نور الدين ابن برهان الدين : على بن إبراهيم بن أحمد الحلبى ، المؤرخ

---

(١) سورة النجم : الآيتان ١٧ ، ١٨ .

الأديب (٩٧٥ ــ ١٠٤٤هـ / ١٥٦٧ ــ ١٦٣٥م) ، صاحب التصانيف الكثيرة ، وأشهرها (السيرة الحلبية) أو: (إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون) . الذى تطرق فيه إلى المسألة ، شاهدا على عصره ، وعلى حالة المسلمين الفكرية البائسة حينذاك ، فيقول : « اعلم أنه لاخلاف فى الإسراء به صلى الله عليه وسلم إذ هو نص القرآن على سبيل الإجمال ، وجاءت بتفصيله وشرح أعاجيبه أحاديث كثيرة عن جماعة من الصحابة من الرجال والنساء نحو الثلاثين ، أى : ومن ثَمَّ ذهب الحاتمى الصوفى إلى أن الإسراء وقع له صلى الله عليه وسلم ثلاثين مرة . فجعل كل حديث إسراء . واتفق العلماء على أن الإسراء كان بعد البعثة . أى : الإسراء الذى كان فى اليقظة بجسده صلى الله عليه وسلم فلا ينافى حديث البخارى عن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ أن الإسراء كان قبل أن يوحى إليه صلى الله عليه وسلم لأن ذلك كان فى نومه بروحه : فكان هذا الإسراء توطئة له وتيسيرا عليه ، كما كان بدء نبوته صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة . وفى كلام الشيخ عبد الوهاب الشعرانى أن إسراءاته صلى الله عليه وسلم كانت أربعا وثلاثين : واحداً بجسمه صلى الله عليه وسلم والباقى بروحه .

« ويجوز أن يكون المراد بالبصر بصر قلبه ، لما تقدم أن الله ــ تعالى ــ خلق لقلبه بصرا ــ والله أعلم ــ وقيل :

كان الإسراء بجسده ، والمعراج بروحه الشريفة ، أى : بذاتها عرج حقيقة من غير إماتة للجسد ، وكان حالها فى ذلك أرقى منه لحالها بعد مفارقتها لجسدها بموته » [1].

* * *

وبعد فترة مديدة ، عقم فيها الفكر الدينى تقريبا عن التأليف الجديد ، انتهى المطاف إلى تفسير (روح المعانى لأبى الثناء : محمود بن عبد الله الحسينى الآلوسى (١٢١٧ ــ ١٢٧٠ هـ / ١٨٠٢ ــ ١٨٥٤ م) قاضى بغداد المفسر المحدث الأديب ، كان من أهل الاجتهاد ، وألف المصنفات الكثيرة فى كل فن .

وقد تطرق الآلوسى فى تفسيره إلى مسألة الإسراء بالروح ، فذكر القول المنسوب إلى السيدة عائشة وإلى معاوية ، ونقل نحو الردود السابقة ، إلى أن قال : « وذهبت طائفة منهم القاضى أبوبكر والبغوى إلى تصديق القائلين بأنه فى المنام والقائلين بأنه فى اليقظة وتصحيح الحديثين فى ذلك بأن الإسراء كان مرتين ، إحداهما فى نومه صلى الله عليه وسلم

---

(١) (السيرة الحلبية) طبعة المطبعة الأزهرية ــ صفحة ٤٠٤ / ١ : (حقائق الإسراء والمعراج) ــ صفحة ١١٥ .

قبل النبوة فأسرى بروحه توطئة وتيسيرا لما يضعف عنه قوى البشر ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ ثم أسرى بروحه وبدنه بعد النبوة قال فى الكشف : وهذا هو الحق وبه يحصل الجمع بين الأخبار . وحكى المازرى فى شرح مسلم قولًا رابعا جمع بين القولين ، فقال : كان الإسراء بجسده صلى الله عليه وسلم فى اليقظة إلى بيت المقدس ، فكانت رؤية عين . ثم أسرى بروحه الشريفة ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ منه إلى ما فوقه ، فكانت رؤيا قلب» [1].

ثم ظهر رفاعة رافع بن بدوى بن على الطهطاوى (١٢١٦ ـــ ١٢٩٠ هـ / ١٨٠١ ـــ ١٨٧٣ م) ، الذى يعتبر علما من أعلام النهضة المصرية العلمية الحديثة ، صاحب المؤلفات بالعربية والترجمات عن الفرنسية ، ومن أشهر كتبه (نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز) حيث تطرق فيه إلى حادثة الإسراء والمعراج بالتفصيل ، وتطرق إلى القضية القديمة ، فرجح أن الإسراء كان بالجسد كعادة من سبقوه ، وساق الأدلة وافية على ذلك .

* * *

---

(١) (حقائق الإسراء والمعراج) صفحة ١١٧ .

وأثيرت المسألة بعد ذلك فى مطلع القرن الرابع عشر إبان وقوع معظم البلدان الإسلامية فريسة للاحتلال الأجنبى ، وتساءل البعض عن الحقيقة ، وورد لمجلة (نور الإسلام) عام ١٣٥٣ هـ / ١٩٣٤ م) سؤال يقول :

« حضرة صاحب الفضيلة أستاذنا الكبير الشيخ يوسف الدجوى . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. وبعد :

فعندنا فريق من أساتذة المدارس ينكرون المعراج ، ويقولون : إن ذلك غير ممكن ، والمتدين منهم الأقرب إلى الاعتدال يقول : إن الإسراء بالروح دون الجسد ــ فنرجو من فضيلتكم تحقيق الموضوع بالبراهين المقنعة حتى ينقطع الجدال والمراء . وها نحن أولاء فى انتظار ما يدبجه يراعك البليغ وبيانك الواسع كما هى عادتك ، واقبل فائق احترامى وإجلالى لشخصك المحبوب » .

وقد علق الأستاذ سعيد محمد حسن فى (حقائق الإسراء والمعراج) على هذا السؤال بقوله : « إذا كان المسلمون فى جدلهم العقيم عن (الإسراء بالروح أو الإسراء بالجسد) قد لبثوا طوال عشرة قرون يخوضون غمار معركة وهمية ضد طرف لا وجود له ، فقد أصبح عليهم أخيراً أن يواجهوا خصما حقيقيا فقد ظهر بين المسلمين ــ لأول مرة ــ من

بعد ابن إسحاق من يقول : إن الإسراء كان بالروح ولم يكن بالجسد ، وإنه كان رؤيا ولم يكن فى اليقظة »[1].

ولقد سارعت (دائرة المعارف الإسلامية) إلى تشجيع هذا الرأى الثابت ، وكتب المستشرق شريك تعليقا على هامش مادة (إسراء) كان مما جاء فيه :

« وضع القرآن قانونا ساميا لحرية العقل وقال : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ ويجب على الإنسان ألايتبع غير سبيل العلم والعقل وأن يكون فى البحث العلمى حر الرأى » ...

ويجب للعلماء أن يتلقوا البحث العلمى بصدر رحب ، فمسألة الإسراء من المسائل التى ارتبكت فيها الأخبار واختلفت الآراء لثلاثة :

١ ــ أن الإسراء كان بصعود النبى صلى الله عليه وسلم إلى السماء بجسده .

٢ ــ أن النبى صلى الله عليه وسلم أحاط بروحه الذكية على أسرار من العالم المحجوب ووصل إلى عالم رفيع من العلم فى تلك الليلة ، وأزيح له النقاب عن كثير من المجهولات .

٣ ــ أنه كان رؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) (حقائق الإسراء والمعراج) ــ صفحة ١٢٠ .

(٢) سورة الإسراء : من الآية ٣٦ .

« أما القول الأول فلايقره العلم ولايصدقه العقل ، إنما ظهر هذا القول لأن عدة من الصحابة ـــ رضى الله عنهم ـــ لما رأوا فى النبى صلى الله عليه وسلم من الآيات الباهرات من صدقه وأمانته وخلقه العظيم وعلمه بأسرار الأمور خضعوا له غاية الخضوع ، بدرجة لم يكونوا لشدة إيمانهم به يتأملون فى نبل أقواله المتضمنة للأسرار والرموز التى كانت الظروف توجبها أحيانا .

أضف إلى ذلك أنّا إذا نظرنا إلى ماورد عن طريق الصحابة والمفسرين منسوبا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه المسألة من جميع نواحيها ، نجد مايهدينا إلى أن الإسراء كان بالروح ... وفى قوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ[1] ﴾ مايهدى إلى الحق ، فهو نسب المرئى وهو انكشاف الحقائق العلمية للفؤاد ، وبذلك تعرف أن الإسراء كان بالروح وإلا كان ينسب المرئى إلى البصر دون الفؤاد » .

* * *

ثم أدلى الدكتور محمد حسين هيكل برأيه فى كتابه المعروف (حياة محمد) منحازا إلى وصف القائلين بالإسراء بالروح ، فقال : « ففى الإسراء والمعراج فى حياة محمد الروحية معنى سامٍ

---

(١) سورة النجم : الآية رقم ١١ .

غاية السمو . ومعنى أكبر من هذا الذى يصورون ، والذى قد يشوب بعضه من خيال المتكلمة الخصب حظ غير قليل ... فهذا الروح القوى قد اجتمعت فيه فى ساعة الإسراء والمعراج وحدة هذا الوجود بالغة غاية كمالها لم يقف أمام ذهن محمد وروحه فى تلك الساعة حجاب من الزمان أو المكان . أو غيرهما من الحجب التى تجعل حكمنا نحن فى الحياة نسبيا محدودا بحدود قوانا المحسة والمدبرة والعاقلة . تداعت فى هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمد ، واجتمع الكون كله فى روحه ، فوعاه منذ أزله إلى أبده ، وصوره فى تطور وحدته إلى الكمال عن طريق الخير والفضل والجمال بفضل من الله ومغفرة ، وليس يستطيع هذا السمو إلا قوة فوق ماتعرف الطبائع الإنسانية .. والعلم فى عصرنا الحاضر يقر هذا الإسراء بالروح ويقر المعراج بالروح ، فحيث تتقابل القوى السليمة يشع ضياء الحقيقة » .

* * *

وممن انحاز إلى الدكتور هيكل فى هذا الرأى الأستاذ محمد زكى بيضون فى كتابه (موكب النور فى سيرة الرسول) ، وقد تصدى علماء الأزهر الشريف وغيرهم للرد على هذا الاتجاه ، وصدر فى ذلك للأستاذ مصطفى أحمد الرفاعى اللبان كتاب بعنوان (الإسراء والمعراج) نشر فى عام (١٣٥١ هـ / ١٩٣٢

م) . ثم فى العام التالى صدر للأستاذ على محمد شاكر كتاب بعنوان (رسالة الإسراء والمعراج) ، ثم صدر للشيخ عبد الله المراغى كتاب بعنوان (أفضل منهاج فى إثبات الإسراء والمعراج) نشر فى (١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ م) . وكتب أمير الشعراء أحمد شوقى قصيدته الشهيرة فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مناصراً فيها الإسراء بالروح والجسد قائلا :

يا أيها المسرى به شرفا إلى ... ما لاتنال الشمس والجوزاء
يتساءلون وأنت أشرف هيكل ... بالروح أم بالهيكل الإسراء
بهما سموت مطهرين كلاهما ... نور وريحانية وبهاء

وهكذا كان تيار القائلين بالإسراء بالروح والجسد دائما هو الأقوى والأغلب — ولم يكتسب رأى القائلين بالإسراء بالروح شيوعا على الإطلاق ، وإن ظهر أحيانا القول الوسط المنقول للتوفيق بين الرأيين ، بحيث يكون الإسراء إلى بيت المقدس بالجسد ، أما المعراج من بيت المقدس إلى السماء فبالروح وحدها .

* * *

ولقد توالت الكتابات المعاصرة ، خصوصا المقالات فى المجلات الإسلامية والصحف السيارة بشكل عام ، وبشبه إجماع

على الإسراء بالروح والجسد ، وأصبحت القضية مثار حديث الخاصة والعامة والمثقفين وأشباههم ، ويشير الشيخ عبد الحسيب طه فى مقال له بمجلة (منبر الإسلام) سنة ١٩٦٧ م إلى أن المقالات والكتب فى هذه القضية أصبحت تعد بالآلاف فيقول : « لم يكن بدعا أن يختلف الناس قبل ذلك حول الإسراء والمعراج ، وأن يكتب فى ذلك آلاف المقالات والكتب ، وتفنى جهود العلماء ، والبحث هو البحث ، والموضوع هو الموضوع ، هل كان الإسراء بالجسد أو بالروح ، فكيف يكون ذلك » [1].

ومما يؤكد أن القضية أخذت أحيانا شكل المعركة الحامية تعبير الأستاذ محمد محمد السباعى الديب فى مقال له بنفس المجلة أشبه بالمرافعة ، جاء فيه : « وإننى مازلت عند رأيى الذى سبق لى أن أبديته ، ولن أحيد عنه أبداً قيد أنملة ، وهو أن الإسراء والمعراج لنبينا ومصطفانا محمد صلى الله عليه وسلم كان فيهما بالروح والجسد معا ، وكان ذلك يقظة لامناما ... أقول ذلك وأدين به وأكرره فى كل حين ، وليس إصرارى على معتقدى هذا تعصبا من غير دليل ، أو مجرد رغبة فى معارضة المخالفين الذين يقولون غير ذلك ، والذين يرون أن حادث الإسراء والمعراج

---

(١) (مجلة منبر الإسلام) ــ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر ــ عدد ٢٥/ ٧ــ رجب ١٣٨٧ هـ ــ الملحق : صفحة ٤٩ .

كان بالروح فقط أو كان مناما فقط ... السر فى إصرارى على أن المعجزة تمت بالروح والجسد معا يرجع إلى عدة دلالات أقتصر على ذكر تسع منها ...» [٢].

فالقضية أخذت بعدا خياليا إذن ، ولا عجب بعد ذلك أن تناولها كبار الكتاب والعلماء كالشيخ محمد متولى الشعراوى فى (المعجزة الكبرى) ومحمد أبوالعزائم فى كتاباته عن (الإسراء والمعراج) والأستاذ أحمد بهجت فى كتابه (أنبياء الله) وغيرهم ، وقد عبر بعض أولى البصيرة عن حزنهم لما آلت إليه المسألة التى تضخمت دون داع ولا مبرر ، فكتب الشيخ عبدالحميد بلبع سنة ١٩٧٢ م يقول : « هذا الخلاف الواسع الأطراف الذى ما كان ينبغى أن يكون ـــ وإن كان لابد أن يكون ـــ كان يجب أن يكون قاصرا على مستوى السادة العلماء يمحصونه ولا يتجاوز مجلسهم الموقر حتى لا يحدث ذلك بلبلة فى فكر العامة ولا يحط من قيمة هذه الرحلة الميمونة فى نظر الخصوم » [١].

* * *

---

(١) المصدر السابق صفحة ٣٠ ، ٣١ .

(٢) (منبر الإسلام) ـــ عدد رجب (١٣٩٢ هـ / أغسطس ١٩٧٢ م) الملحق : صفحة ٨٨ .

ومع ذلك بلغ من إصرار بعض الكتاب المعاصرين على إثارة هذه القضية ، وانفعالهم بها أن كتب أحدهم كتابا بعنوان (أسرار الإسراء والمعراج جسدا وروحا) نشرته دار الاعتصام بالقاهرة سنة ١٩٧٩ م ، وقد عنون مؤلفه أحد أبواب الكتاب (بحتيقة الرحلة العلوية) وناقش فيه بإسهاب مسألة الإسراء بالروح والجسد ، ودليلها من كلمة (بعبده) ، ورد على معارضيه ــ لا بتضعيف حديث عائشة ــ بل بإجازة لفظ الرؤيا للتعبير عن النظر بالبصر العادى ، ومما جاء فيه قوله :« ولقد يستشهد أولئك النقاد بقول عائشة ــ رضى الله عنها ــ إن صح عنها وهى تقول : ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن أسرى بروحه » وصدقت عائشة ، وكذب هؤلاء فإنها ــ رضي الله عنها ــ ما أخبرت إلا بما أحست وما شهدت إلا بما علمت ، إذ كانت ــ بنص حديثها إن صح عنها ــ نائمة إلى جواره ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ فما شعرت بما كان من أمر قيامه » .

ولا ندرى سر إعراض المؤلف عن الاستفادة بما قرره المحققون من ضعف الحديث ، وسقوطه من كتب الحديث الصحيحة المعتمدة ، وأن عائشة ــ رضى الله عنها ــ كانت صغيرة السن لا تضبط الحديث ، ولم تكن أصبحت أمًّا للمؤمنين تنام إلى جواره كما يقول .

لقد أصبح الجدل إذن — ولا طائل من ورائه — عن الإسراء والمعراج بالروح وحده ، أم بالروح والجسد عنوانا للكتب ، واحتدم الجدال أكثر ، ففى المقابل مثلا نجد للدكتور عبدالجليل راضى رأيا منحازا إلى المعراج بالروح ، ذكره فى كتابه (حياة محمد الروحية) يقول فيه : تكلمنا عن الرحلة التى قام بها النبى من مكة إلى بيت المقدس ليلة الإسراء ، وافترضنا إمكانية حدوثها سواء بالروح أو بالجسد والروح معا . أما المعراج ، وهو المرحلة الثانية فقد كانت من صخرة بيت المقدس إلى السماء ولا يوجد أدنى شك فى أن هذه الرحلة كانت بالروح لا غير ، إذ لا يمكن أن يرتفع الجسد الأرضى من باب السماء ، فقانون الخليقة يرتب المواد والعناصر والطبقات والمستويات ، فهناك جسم صلب ، وهناك جسم سائل ، وهناك جسم غازى ، وهناك جسم حيوانى ، وجسم أثيرى ، وجسم روحى .. إلخ .

« وهناك آيات عدة تبين أن الملائكة تصعد إلى السماء عن طريق (المعراج) : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [1].. ومن هذا يتبين لنا أن

---

(١) سورة المعارج : الآية ٤ .

النبى عندما صعد إلى السماء تلك الليلة كان فى جسمه الروحى لا غير ، وهذا الشىء منطقى وواضح من ثنايا القصة ، فهو يصف لقاءه مع الأنبياء السابقين ، ولما كان هؤلاء أرواحا وليسوا أجساما فيزيقية فلابد وأن يكون النبى فى مثل هذا الموقف حتى لو فرضنا أنهم كانوا متجسدين ، فلابد أن يكون هو فى جسده مثلهم ، ويكون اللقاء ــ إذن ــ فى الأرض لا فى السماء ، وبذلك لا تكون الرواية السابقة صحيحة » .

* * *

وللمستشار محمد أمين جبر رأى مشابه ذكره فى كتابه (الإسراء والمعراج ــ قراءة وثيقة ورؤيا جديدة) والصادر سنة ١٩٨٤ م يقول فيه : « أما بالنسبة لليل الذى ورد ذكره بعد الإسراء ، وهو السير ليلًا ، فربما يكون المقصود منه هو الإشارة إلى ظلمة الغيب بالنسبة للعقل البشرى فى التجسد ويكون الإسراء والمعراج نقلة روحية من مراتب الوعى العالى الكامن فى أبعاد عميقة فى النفس . تمت مع ذلك فى تجسيد للإسراء، وفى غير تجسيد للمعراج، ففى الحالة الأولى يمكن أن يكون الجسد موجودا فى مكانين فى وقت واحد وفى الحالة الثانية يكون الجسد فى مكانه فى حالة النوم أو حالة أشبه بالنوم ، هى ما عبر عنها الرسول صلى الله عليه وسلم بأنها بين

اليقظة والنوم ، ويكون الروح فى مستوى من الوعى العالى فى حالة الصحو . وهذا ما يمكن أن نفسر به حديث السيدة عائشة أن جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يغب عن فراشه ليلة الإسراء والمعراج ، وبذلك يمكننا أن نقول : إن الإسراء والمعراج يختلفان فى أمرين :

الأول : أن الإسراء فيه تحديد للمكان أو للمسافة وفيه تحديد للزمان إذا اعتبرنا الليل فترة زمنية .

الثانى : أن المعراج ليس فيه تحديد لا للمكلن ولا للزمان ، وإنما هو وصف لحاله » .

وهكذا نرى أن دائرة القائلين بالإسراء أو المعراج بالروح قد اتسعت مؤخرا بشكل ملحوظ ، ولكن نلاحظ على مقولات المستشار جبر عناصر جديدة ــ منها : أن يكون الجسد موجودا فى مكانين فى وقت واحد مثلا ، وهو ما يوضح مدى ما يمكن أن ينساق إليه المرء تحت تأثير نزعة المجاراة لتصورات ذهنية منفصلة عن المنطق والواقع ، ومبتورة عن أساس القضية موضوع البحث .

وتتضح مرة أخرى أهمية التحرى عن صحة أصل أى قضية مطروحة للنقاش قبل التمادى فيه ، بأطروحات جدلية محضة ، ولقد رأينا أن القضية المفتعلة للإسراء بالروح قد بدأت بحديثين موضوعين . ورأى بلا دليل غيرهما من ابن

إسحاق ، ولكن الفكر الإسلامى ظل يردد هذا الرأى ويفنده بطرق عدة حتى بدا وكأنه قضية كبرى اختلف فيها (السلف والخلف) على حد قولهم .

والحقيقة أنهم لم يختلفوا ، فلولا رأى ابن إسحاق ، وهو الرأى الوحيد فى ذلك ، لما أثيرت هذه المسألة أصلًا ، ولما أمكن للمستشرق (شريك) أن يؤكد فى (دائرة المعارف الإسلامية) أن الإسراء لم يكن إلا بالروح . ولما وجد من أنصاف المثقفين الآن من ينخدع بهده الفرية ، لجهله بأصلها وبتهافت هذا الأصل ، وكان يكفيه ويكفى أجيالا عديدة من المسلمين إسناد تلك الواقعة إلى قدرة الله القادر ، وأن يسند الإيمان بها إلى الإيمان الكلى والأصلى بالله تعالى ، وبالرسول صلى الله عليه وسلم كما فعل أبوبكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ الذى قال : (إننى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه فى خبر السماء) .

والحقيقة أن المرء ليعجب من بعض ما يقرؤه من استغراب واستكثار القائلين بإسراء أو معراج الروح دون الجسد ، وخصوصا من يستبعدون ذلك على ضوء قوانين الفيزياء ــ كما يزعمون ــ التى تحكم باستحالة عروج الأجسام المادية من أبواب السموات وهو الرأى الذى أخذ به الدكتور عبدالجليل راضى والمستشار محمد أمين جبر ، وإنى إخالهما

مسلّمَيْنِ برفع جسد عيسى ــ عليه السلام ــ مصداقا للآية الكريمة ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾[1]، وهو جسم مادى ، كما أن أبواب السماء التى يظن أنه من المحال أن يهبط منها جسم مادى قد هبطت منها مائدة كاملة بنص القرآن ، والحق أن لاشيء يستحيل فى إرادة الله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [2] صدق الله العظيم .

وإذا كان مجرد تسرب حديثين موضوعين فقط إلى قصة واحد من أعظم أحداث السيرة النبوية العطرة قد نتج عنه كل هذه التأويلات الفاسدة فإن لنا الحق أن نجزع من رائحة أى مدسوس فى كل ما نقابله من كتابات ، ونطالب السادة الكتاب والعلماء والوعاظ والمثقفين بشيئين متلازمين هما :

١ ــ ضرورة تحرى الصحة فى الأحاديث المتداولة فى كتاباتهم .

٢ ــ التخلى عن منهج النقل الذي تسبب عبر القرون فى تضخيم مسألة الإسراء بالروح ، وهذا المنهج سبب رئيسى فى معظم الإشكالات التى يقابلها الباحثون عن توفيق بناء بين الأصالة والمعاصرة .

فبهذا وحده يمكن إنقاذ حركة ومسار الفكر الإسلامى والصحوة الإسلامية من مخاطر حقيقية .

(١) سورة النساء : من الآية ١٥٨ .　　(١) سورة يس : الآية ٨٢ .

عـام الحـزن

تسمية مبتكرة وخيال واسع

بقدر ما توقف البحث طويلًا عند مسألة الكيفية التى تمت بها معجزة الإسراء بالروح أم بالجسد لم يقترب أحد تقريبا من محاولة تفسير الحكمة من اختياره لهذه الطريقة أو تلك الأخرى ، والأهم من ذلك كله محاولة اكتشاف الحكمة من حدوث هذه المعجزة فى مثل الظروف التى حدثت بها ، وهى ظروف لم تكن من المنظور البشرى مناسبة إطلاقا لمصلحة الدعوة ــ إذا كان المقصود من هذه المصلحة إقناع المشركين بصحة الرسالة وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم : « فهى لم تحدث أمام جمهرة من الناس ، أو على مشهد من الملأ ، بل حدثت بين الله ورسوله ، وكشف له فيها أسرار السموات وأسرار الكون [1]» .

---

(١) (معجزة القرآن) ــ للشيخ محمد متولى الشعراوى ــ الجزء الثانى ــ مؤسسة أخبار اليوم ــ صفحة ١٣٩ .

ولكن البحث عن الحكمة من (الإسراء والمعراج) تراجع أمام الوصف التفصيلي للرحلة والجدل المفتعل حول الكيفية ، والاهتمام الأكبر بعنصر السرعة التي تمت بها المعجزة ، كعنصر إبهار مثير للدهشة ، لقد ظل هذا العنصر البسيط عاملاً مشتركا لكل حديث يكتب عن الإسراء والمعراج حتى يومنا هذا ، ففي آخر المؤلفات الصادرة في مصر عن (الإسراء والمعراج) يعقد السيد المستشار محمد أمين جبر في كتابه (الإسراء والمعراج ـــ قراءة وثيقة ورؤيا جديدة) بابا خاصا بالزمان ، مهتما اهتماما كاملًا بعنصر الزمن ، أي : السرعة ، على ضوء معطيات علم الطبيعة الفيزيقية للضوء وصلة ذلك بالمعجزة ، ثم اعتمادا على الآية القرآنية الكريمة ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [1] حاول حساب المسافة التي يقطعها الضوء في خمسين ألف سنة ـــ باعتبار الملائكة والروح مخلوقات نورية ـــ فقال : « فإذا علمنا أن الضوء يسير بسرعة ٣٠٠,٠٠٠ كيلومتر في الثانية تقريبا ، فإنه يستطيع أن يقطع في مدة عام مسافة تكاد تقرب من ١٠ مليون كيلومتر ، وهو ما يعرف بالسنة الضوئية .

---

(١) سورة المعارج : الآية ٤ .

ومن هنا فلو أردنا أن نعرف بالتقريب المسافة التى تقطعها الملائكة والروح ــ مع أخذ سرعة الضوء كمقياس ــ مع أنه من الممكن جدا أن تكون هذه المخلوقات ذات سرعة تفوق سرعة الضوء الفيزيقى ــ فإن علينا أن نضرب الرقم ١٠ مليون مليون كيلومتر × ٥٠,٠٠٠ سنة لتكون نتيجة حاصل هذا الضرب هو المسافة التى تقطعها الملائكة والروح فى عروجها إلى الله سبحانه وتعالى (١) وهذه المسافة بحسابنا الكونى تقطعها الملائكة فى اليوم بقياس العالم الروحانى فيما يمكن أن نطلق عليه (الزمان الروحى) أى : القياس الزمنى بالنسبة للعوالم الروحية،ولذلك فإذا افترضنا أن الخمسين ألف سنة هى من السنوات الضوئية ــ وهو الأقرب إلى التصور الصحيح بالنسبة لعالم الروح النورانى ــ وإذا علمنا أن الضوء يقطع فى سنة واحدة مسافة ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ كيلومتر ، لكان معنى ذلك أن المسافة التى تقطعها الملائكة والروح هى حاصل ضرب ٥٠,٠٠٠ × ١٠ مليون مليون كيلومتر وهى المسافة التى تبلغ ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ كيلومتر .

والرابط بين المسافة والزمان هو السرعة ، فالسرعة إذن هى المقصودة لاعتبارها العنصر الرابط بين الزمن والمسافة

---

(١) ليس بين الله ــ سبحانه وتعالى ــ وبيننا مسافات تقطع ، كما سبق أن قررنا .

والرقم ٣٠٠,٠٠٠ هو رقم دال فى واقع الأمر على سرعة وزمن (كيلومتر / ثانية) مع ترجمة الاثنين إلى مسافة ، هذه السرعة التى يدل عليها هذا الرقم هى سرعة الضوء ، وهى سرعة ــ فيما نعلم حتى الآن مطلقة فى الكون كله بصرف النظر عن مكان المراقب ، فهى واحدة لا تتغير أبداً .

ولقد استعملنا هنا فى الحديث سرعة الضوء باعتبار أن الملائكة والروح مخلوقات نورية ، ولكن هل يعنى ذلك أن الملائكة والروح يتحركون أو يعرجون بسرعة تماثل سرعة الضوء ؟ .

إننى أحسب ــ والله وحده أعلم ــ أن هذا الرقم ليس واردا فى القرآن الكريم على سبيل التحديد النهائى ، وإنما على سبيل المثال التقريبى لبيان حقائق الأبعاد فى عالم الروح ليلحظها ويدركها العقل البشرى . ومن نتيجة ذلك يصبح من الممكن جدا أن تعلو سرعة الروح على سرعة الضوء فى الكون الفيزيقى » [1].

ومن المثير للانتباه هنا أن عبارة الأستاذ محمد جبر الأخيرة قد جعلت حساباته السابقة غير ذات فائدة ، فأى جدوى نتوخاها من هذه الحسابات ما دامت سرعة الروح غير مساوية لسرعة الضوء فى الكون الفيزيقى ؟ .

(١) (الإسراء والمعراج : قراءة وثيقة ورؤيا جديدة) ــ صفحة ٧٦ .

وهذه الحسابات كلها هى مثال واضح لما كسبه عنصر السرعة فى حادثة الإسراء والمعراج من اهتمام متواصل عبر الأجيال ، فى حين أن العناصر الأخرى فى هذه المعجزة والتى لاتقل أهمية عن عنصر السرعة لم تجد معشار هذا الاهتمام[٢] ولعل أهمها جميعا عنصر الحكمة من وقوعها الذى كان أقل العناصر تناولا طوال القرون الماضية وحتى الآن ، حتى أننا غير واجدين فى كتاب الأستاذ محمد أمين جبر — رغم احتفائه الكبير بعنصر السرعة — تطرقا إلى الحديث عن الحكمة من وقوع الحادثة نفسها .

إن الظروف العامة للدعوة الإسلامية وقت أن تحققت معجزة الإسراء والمعراج كانت بالغة الصعوبة ، وكان عدد المسلمين ثابتا من فترة غير قصيرة ، ولم ينضم إلى جماعتهم مؤمنون جدد ، بل عذب المشركون وافتتنوا بعضا منهم ، ولقى المسلمون عنتا وأذى كثيرا ، وطلب المشركون فى جدالهم مع النبى ﷺ أدلة مادية ملموسة ، كبرهان على صدق رسالته ، حتى يؤمنوا به ، وإلا فهو ساحر أو مجنون أو كاذب مدَّع : ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ

(٢) الاهتمام بمسألة الإسراء بالروح أو بالجسد هو فرع من الاهتمام بعنصر السرعة كما هو واضح عند أدنى تأمل .

ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا۝ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (١).

وإبان تلك الأوضاع القاسية وقعت معجزة الإسراء والمعراج ، وكانت تبدو متعارضة مع طبيعة تلك الفترة فى عدة أمور :

ــ فهى ليست دليلا ماديا ملموسا يلبى تطلعات مشركى مكة فى برهان مادى .

ــ وقد تمت ليلا وخفية ، فلم يشهدها أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشهدوا على حدوثها أمام المنكرين .

ــ وهى معجزة غير عادية ، ويصعب على الأذهان الكافرة تصورها ، بل هى مما يثير لديهم مزيدا من الاستنكار والتكذيب ، بل لقد دفع الإفصاح عن حدوث تلك المعجزة بعض ضعاف الإيمان من المسلمين إلى الارتداد عن الإسلام ، أى : الكفر بكل الدعوة حسبما جاءت به الرواية .

---

(١) سورة الإسراء : الآيات ٩٠ ــ ٩٣ .

فكأن الظروف كلها بالحساب البشرى لم تكن تتطلب حدوث هذه المعجزة بهذا الشكل فى ذلك الوقت ، ولو تدبرت قريش الأمر قليلا لأيقنت استحالة اختلاق هذه القصة ، أو على حد قول الدكتور عبد المنعم سيد حسن فى مقال له بمجلة (منبر الإسلام) سنة ١٩٧٧م : « لو كبر حظهم من الرَّوِيَّةِ والأَنَاةِ لفطنوا إلى أن اختلاق هذه القصة يدخل فى نطاق المستحيل عادة ، إذ كيف يتصور اختلاق مثل هذه القصة من رجل يواجه من قومه وعشيرته بالتكذيب صباح مساء ، حتى أنهم كانوا يجادلونه فى بدهيات الأمور »[1] .

أما والحال هكذا فإن أهم سؤال يثار هنا هو ما الحكمة التى ارتأت المشيئة الإلهية من أجلها حدوث هذه الرحلة العجيبة فى هذا الوقت بالذات ؟ .

لعل الطريق الصحيح للوقوف على تلك الحكمة هو البدء بتقرير خصوصية المعجزة بالنسبة للنبى صلى الله عليه وسلم فلقد أسرى الله تعالى (بعبده) (ليريه) من آياته سبحانه . لقد أوحى الله إلى (عبده) ما أوحى .. ولقد (رآه) نزلة أخرى .... ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من

---

(١) (منبر الإسلام) عدد رجب ١٣٩٧هـ / يونيو ١٩٧٧م ــ الملحق : صفحة ٨٨ .

آيات ربه الكبرى .. فكأن حكمة الإسراء والمعراج مختصة (بشخصه) الكريم صلى الله عليه وسلم ومتصلة بحالة الرسول النفسية الخاصة ، وأثرها واقع على ذاته الشريفة ، فالحادثة كلها حادثة شخصية بحتة خاصة به ــ عليه الصلاة والسلام ــ .

بهذا يصبح من غير المعقول الاعتقاد فى أن معجزة الإسراء والمعراج قد جاءت لتقنع الناس بالإسلام . وهو قول يتردد من حين إلى آخر ، ومثاله ماذكره الأستاذ سليمان نجا الإيبارى فى مقال له عن الإسراء والمعراح بالعدد رقم ٧ من السنة ١١ من مجلة (منبر الإسلام) ــ ديسمبر ١٩٦٣م ــ حيث قال : « وكان لابد من معجزة كبرى (تقنعهم) بأن مادعاهم إليه محمد صلى الله عليه وسلم إنما هو من عند الله ، وتم أمر الله ، وحصلت المعجزة الكبرى ــ معجزة الإسراء والمعراج » .

والواقع يخبرنا أن أحدا من المشركين لم يقتنع حينذاك بهذه المعجزة ، حتى بعد أن وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم بيت المقدس ، وحدثهم عن عيرهم القادمة فى الطريق بالحديث الصادق ، ولم يكن عموما من مقصود الرسول صلى الله عليه وسلم إقناع مشركى مكة الذين نزل فيهم قوله

تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾

بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم كما ذكرت الأحاديث كان عالما بأن قريشا ستكذبه وحاولت هند بنت أبى طالب منعه من الإخبار بما حدث له فأبى .

وقد أفاد حدوث المعجزة فى التخلص من أصحاب الإيمان الضعيف المشوش ليبقى فقط أصحاب اليقين الثابت المستقر ، الذين هم فى قوة إيمانهم قوة للإسلام وللدعوة ، ولكن هذه الفائدة المتحصلة ـــ بعد أن قررنا خصوصية المعجزة بالرسول ـــ لم تكن السبب الرئيسى الذى من أجله حدث الإسراء والمعراج ، ولاننفى بهذا القول حقيقة أن التمحيص كان مفيدا بلا شك فى انتقاء وانتخاب المسلمين الأوائل من أصحاب الإيمان الراسخ ، والتخلص ممن سواهم ، ملائمة لطبيعة المرحلة التالية من مراحل الدعوة الإسلامية ، حيث ستقع الهجرة ويؤذن بالجهاد وينتشر الإسلام وتفتح مكة .

* * *

ولكن ماعساه يكون السبب فى حدوث هذه المعجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك الوقت بالذات ؟

فى الإجابة على هذا السؤال تبلور فى الكتابات المتأخرة إجماع غريب على أن الحكمة الأساسية من هذه المعجزة هى التسرية عن الرسول الكريم ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ ومواساته ، والتفريج عنه مما أَلَمَّ به من حزن شديد ، وهمٌّ بالغ بعد موت أبى طالب الذى كان يحميه ويدافع عنه ، وموت السيدة خديجة التى كانت تعضده وتسانده معنويا وأدبيا ، وكذلك بعد عودته من الطائف أسيفا لعزوف ثقيف عن الاستماع لدعوته ، مما دفع الرسول إلى تسمية هذا العام بعام الحزن . ـــ حسبما يقولون ـــ فأسرى به وعرج (لتسلية الرسول والترفيه عنه ولتطبيب جراحه ومسح أحزانه) ، ونضرب مثلًا بما يقال فى هذا الوجه بما ذكره الشيخ الطنطاوى أحمد عمر فى مقال له بمجلة (منبر الإسلام) قال : « وللإسراء والمعراج مقاصد كثيرة : من هذه المقاصد السامية تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وتنفيس كربه ، وإشاعة السرور فى جوانب نفسه ، فقد وقعت حادثة الإسراء والمعراج فى وقت على الرسول عصيب يفيض بالمحن والآلام ، ذلك هو العام العاشر من البعثة فقد توفيت فيه زوجته خديجة وعمه أبوطالب الذى كان يجد منهما كل عون ، يقفان إلى جنبه فى الشدائد والمهمات ، كما رجع من الطائف حزينا مهموما يكاد يبخع نفسه » إلى أن يصف رجوعه من الرحلة قائلا : « فرجع النبى صلى الله عليه وسلم من رحلة الإسراء والمعراج

وهو منشرح الصدر قرير العين مطمئن الخاطر طيب النفس ناعم البال ، محا لسان السرور مداد الهموم والأحزان التى أقضت مضجعه الليالى ذوات العدد » [1] .

لقد توقف المتناولون لحادثة الإسراء والمعراج — أو معظمهم — عند هذه الأسباب التى كادوا أن يجمعوا عليها مؤخرا فى بحثهم عن الحكمة من معجزة الإسراء والمعراج . مع أن أحداً من العلماء الأوائل لم يربط هذا الربط المحكم الذى قالوا به بين حزن الرسول صلى الله عليه وسلم لموت عمه وزوجته ، أو لنتائج رحلة الطائف بالذات دون رحلاته الأخرى ، وبين حكمة الإسراء والمعراج . فابن إسحاق مثلًا قد ألمح بشكل خاطف إلى الحكمة من الإسراء والمعراج فى قوله : « كان فى مسراه وما ذكر عنه بلاء وتمحيص ، وأمر من أمر الله فى قدرته وسلطانه ، فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن بالله وصدق ، وكان من أمر الله — سبحانه وتعالى — على يقين ، فأسرى به كيف شاء ليريه من آياته ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد » [2] وهو — كما

---

(١) ملحق مجلة (منبر الإسلام) — عدد رجب ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

(٢) (السيرة النبوية) لابن هشام — صفحة ٢ / ٢ .

نرى ــ لا يشير بأدنى إشارة إلى هذا الربط الحديث بين أحزان الرسول صلى الله عليه وسلم وحدوث المعجزة .

وفى القرن السادس الهجرى تطرق الفخر الرازى إلى تلك الحكمة فى قوله :

« لا يبعد أنه إذا صعد إلى الفلك وشاهد أحوال السموات والكرسى والعرش صارت مشاهدة أحوال هذا العالم وأهواله حقيرة فى عينيه فتحصل له زيادة قوة فى القلب ، باعتبارها يكون شروعه فى الدعوة إلى الله تعالى أكمل ، وقلة التفاته إلى أعداء الله تعالى أقوى . يبين ذلك أن من عاين قدرة الله تعالى فى هذا الباب لا يكون حاله فى قوة النفس وثبات القلب على احتمال المكاره فى الجهاد وغيره إلا أضعاف ما يكون عليه حال من لم يعاين ، واعلم أن قوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ كالدلالة على أن فائدة ذلك الإسراء مختصة به وعائدة إليه على سبيل التعيين » .

ويلاحظ أيضا أن الفخر الرازى لم يشر إلى مسألة الحزن أو الترفيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وظل الأمر كذلك قرونا دون ذلك الربط المتأخر بينهما حتى العقد الثالث من القرن العشرين الحالى ، إذ يخبرنا الأستاذ سعيد محمد حسن أن

أول من ربط بين أحزان الرسول ومعجزة الإسراء كان هو الأستاذ مصطفى أحمد الرفاعى اللبان الذى نشر فى عام ١٩٣٢ م كتيبا صغيرا عن الإسراء والمعراج قال فيه : « فأسرى به وعرج ، ليبشره عمليا بما يحب ويزيل من نفسه القوية عوامل الأسف والحزن والأسى التى كانت تساوره لكثرة تفكيره فى عماية قومه وغلظتهم وبعدهم عما يريد لهم من مجد دائم وعز مقيم وسعادة فى الدارين وعظمة لن تزول حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

« فالإسراء والمعراج بمثابة مرسوم إلهى أعلن فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ماهو قريب حصوله من إقبال الناس على دين الله أفواجا ، واهتداء الناس بنور الله العظيم ودخول الإنسانية فى عهد هناءة وسعادة ورخاء وكمال وإحسان وعدل وإنصاف وحرية » [١].

ولعلنا نرى أن الأستاذ اللبان قد ربط هنا بين المعجزة وحزن الرسول بعد رحلة الطائف بالذات دون أن يربط بين المعجزة ووفاة أبى طالب وخديجة ، بل الواضح أن حزن الرسول صلى الله عليه وسلم كما ظهر فى تلك العبارات كان لأجل الدعوة التى بدا مستقبلها غامضا مع تضاؤل الآمال فى

---

(١) (حقائق الإسراء والمعراج) صفحة ١٣٣ .

إسلام المزيد من الناس أو فى كف المشركين عن إيذاء المسلمين وفتنتهم فى دينهم ، وهو ما كان يحزن الرسول صلى الله عليه وسلم أشد الحزن مصداقا لقوله تعالى :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[1].

ويبدو أن أول من ربط فعلا هذا الربط المتأخر بين أحزان الرسول لفقد عمه وزوجه وبين المعجزة هو الأستاذ حسين سامى بدوى الذى نشر بحثا فى عام ١٩٣٨ م فى العدد ٢٩ من مجلة (الإسلام) قال فيه على الخصوص : « لقد كانت حادثة الإسراء والمعراج قبل الهجرة بثلاث سنين على ما جاء فى أشهر الروايات وكانت بعد موت السيدة خديجة أم المؤمنين ــ رضى الله عنها ــ وموت أبى طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان صلى الله عليه وسلم وأصحابه محصورين فى شعاب مكة يعانون من اضطهاد قريش وتعذيبهم ما تنوء به الجبال ، وقد كثرت مساءات قريش للنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بعد موت أبى طالب ، مما كان له أثر عميق فى نفس النبى ــ عليه الصلاة والسلام ــ وكان من قدر الله ولطفه بحبيبه أن أسرى به فى ذلك الوقت إلى المسجد

---

(١) سورة الكهف : الآية ٦

الأقصى ، ثم يسر له العروج إلى حيث سمع صوت الأقلام ليريه من عجائب آياته ما يزيد به يقينا على يقينه بأن الذى أرسله هو صاحب القدرة العظيمة التى أبدع بها تلك الآيات وأنه لاشك ناصره ومؤيده » [1] .

وازداد هذا الربط تحديدا فيما بعد ، ثم انتشر وتوطد وشاع فى كل حديث أو مقال فى هذا الموضوع ، فى المجلات الدينية المتخصصة أو غيرها ، وللتدليل على شدة حزن الرسول صلى الله عليه وسلم يتردد دائما حديث منسوب إليه يقول فيه : « مانالت منى قريش شيئا أكرهه حتى مات أبوطالب » [2] وحديث آخر يفيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد سمى هذا العام (بعام الحزن) [3]

وحديث آخر يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، ياأرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته

---

(١) (حقائق الإسراء والمعراج) — صفحة ١٣٥ .

(٢) حديث ضعيف سيأتى تخريجه .

(٣) تقصاه الألبانى فى كتب الحديث فلم يجد له أثرا ، وقال فى تخريجه له : « بعد مزيد البحث لم أقف عليه » — انظر (دفاع عن الحديث النبوى والسيرة) — دار الأرقم — صفحة ١٨ .

أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ، اللهم إنى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك ، أو يحل بى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولاقوة إلا بالله » [١].

وترد على ألسنة الغالبية العظمى من المتحدثين عن معجزة الإسراء والمعراج أن أبا طالب كان حاميا للرسول صلى الله عليه وسلم وأن حزنه عليه وعلى السيدة خديجة ــ رضى الله عنها ــ وعلى عناد ثقيف فى رحلة الطائف ، كان حزنا بالغا أشده ، واستخدمت أشد الأوصاف تأثيرا لتصوير هذا الهم والكرب العظيم ، ليقال بعد ذلك دائما : إن الإسراء كان ضروريا كنتيجة لما اعتمل فى نفس الرسول الكريم من هموم ، ولم يقتصر ترديد هذا القول على صغار الدعاة ، بل قالت به أسماء كبيرة فى مجال الفكر الإسلامى .

وفى كتاب (الإسراء والمعراج جسدا وروحا) الصادر فى ١٩٧٩م يعقد المؤلف الأستاذ محمد فهمى عبد الوهاب بابا

---

(١) رواه ابن جرير (١ / ٨٠ ــ ٨١) من طريق ابن إسحاق ، ورواه الطبرانى فى الكبير من حديث عبد الله بن جعفر . قال الهيثمى : (٦ / ٣٥) : « وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة . وبقية رجاله ثقات » قال الألبانى : فالحديث ضعيف ــ انظر تخريجه (لفقه السيرة) لمحمد الغزالى ــ صفحة ١٣٤ .

بعنوان (لماذا كانت الرحلة العلوية ؟) ولايجد جوابا عن سؤاله هذا إلا بتذكر هذه الأحزان ، فثقيف بعدما نكلت به بسفهائها وصبيانها لم يتركوه حتى ظنوا أنه ميت ، ثم « جاء وقت الذروة عند أعظم ابتلاء من الله على رسول ، فماتت زوجة الرسول الأعظم ، ومات عمه أبو طالب وكان سدا منيعا دون كيد الطغاة مااستطاع ... وازداد الابتلاء عظما وهولًا حينما أبطأه الوحى فتوقف التنزيل حينا حتى بلغ به خوف الله حدا ظن من تواضعه صلى الله عليه وسلم أن الله قد قلاه » [1]

لقد شارك إذن فى الترويج لهذا الربط بين أحزان الرسول صلى الله عليه وسلم وحادثة الإسراء والمعراج حشد هائل من المتعرضين لهذه المعجزة الإلهية الخاصة ، التى اعتبرها هؤلاء (رحلة ترفيه) أو (رحلة تسرية) أو (رحلة مواساة) أو (رحلة تطييب خاطر) أو (رحلة سلوان) أو (رحلة تسلية) أو رحلة (نزهة للاسترواح والترويح وإزالة الهموم) ، وكل هذه الأوصاف قد تناثرت فى كتاباتهم ، وقد انتقيت من كتب ومقالات مختلفة نشرت عبر عدة سنوات ، ولم تزل تتردد فى كل عام مع احتفالات المسلمين بذكرى الإسراء والمعراج .

---

(١) (الإسراء والمعراج جسدا وروحا) ـــ صفحة ٨٧ .

وإمعانا فى هذا الاتجاه أكد الجميع تلك التسمية المبتكرة (عام الحزن) حتى ألف الأستاذ عبد الحميد جودة السحار كتابا بأكمله تحت عنوان (عام الحزن) ، وبلغ الأمر بالشيخ سليمان حسن عبد الوهاب أن قال فى مقال له بملحق مجلة (منبر الإسلام) ــ العدد ٧ من السنة ٢٤ (أكتوبر ١٩٦٦م ــ) : « روى البخارى ومسلم والقاضى عياض فى كتاب الشفا ــ أنه قبل الهجرة بسنة مات أبو طالب عم النبى وماتت بعده السيدة خديجة زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم فحزن الرسول عليهما حزنا شديدا ، وسمى عام وفاتها (عام الحزن) لأنه فقد العونين العزيزين المخلصين » [١].

قال الشيخ هذا مع أنه لا صحيح البخارى ولا صحيح مسلم قد أوردا هذه التسمية منسوبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إلى أحد صحابته ــ رضوان الله عليهم ــ وقد حققها الألبانى فلم يجد بُدًّا من القول : بعد مزيد البحث لم أعثر عليها ، كما سبق فى هامش قريب ، بينما يرصد الأستاذ سعيد محمد حسن أن المقريزى فى القرن التاسع الهجرى هو على الأغلب أول من أطلق هذه التسمية فوصلتنا ، وذلك فى كتابه (إمتاع الأسماع) .

---

(١) (حقائق الإسراء والمعراج) ــ صفحة ١٤٣ .

يدل على ذلك أنه « لم يرد فى كتاب السيرة لابن هشام أو فى الطبقات لابن سعد ، ولا فى تفسير الطبرى أو فى تاريخه مايفيد ذلك . ولم يتحدث البيهقى المتوفى عام ٤٥٨هـ فى كتابه (دلائل النبوة) عن عام الحزن ، كما لم يرد لتلك التسمية ذكر فى كتاب (صفة الصفوة) الذى كتبه جمال الدين أبو الفرج فى القرن السادس الهجرى ، ولا فى كتاب (الروض الأنف) الذى قام فيه السهيلى فى القرن التاسع بشرح كتاب السيرة لابن هشام » [١]. ثم يقول الأستاذ سعيد : « ومن الجائز ألا يكون المقريزى هو المخترع الأول لتلك التسمية ، ربما يكون قد نقلها عن أحد الذين عاصروه أو سبقوه ، واندثرت كتبهم ، لكن الثابت أن كتابه هو أول من حمل تلك التسمية ، ومنه نقلها على بن برهان الدين الحلبى بعد قرنين من الزمان فى كتابه (إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون) [٢].

وبغير تمحيص أو تدقيق بدأ نقل هذه التسمية ديدنا للمتأخرين عند تعرضهم لهذه الفترة من السيرة النبوية العطرة ، وهكذا تناقل الخطباء والكتاب ، والعلماء ، تسمية (عام الحزن) وتلقوها بقبول مابعده قبول نتيجة سيادة منهج النقل دون تحقيق .

---

(١) المصدر السابق : ١٧٠ .

(٢) المصدر السابق : صفحة ١٧٠ ــ ١٧١ .

فماذا ترتب على تسلل هذا الحديث الموضوع إلى كتب السيرة المعاصرة ؟ وفكر المسلمين المعاصرين ؟ ترتب عليه التمهيد الأساسى للقول بأن حكمة الإسراء والمعراج هى التسرية عن الرسول صلى الله عليه وسلم والترفيه عنه ، وخاصة بعد موت عمه أبى طالب الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يقال : « مانالت منى قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب » ، وهذا حديث ضعيف ، يتسرع بعض الكتاب أحيانا فى الحكم له بالصحة ، كما فى مقال للأستاذ أحمد زين فى مجلة (منبر الإسلام) سنة ١٩٧٧م . جاء فيه : « بما صح فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : مانالت منى قريش شيئا أكرهه .. » الحديث [٢].

والحديث ضعيف لم يورده البخارى ولا مسلم فى صحيحيهما ، وليس فيما صح من كتب السنة الأخرى ، وعلق عليه الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى قائلًا : (حديث ضعيف أخرجه ابن إسحاق (١ / ٢٥٨) بسند صحيح عن

---

(١) ملحق مجلة (منبر الإسلام) — عدد رجب ١٣٩٧ هـ / يونيو ١٩٧٧م — صفحة ٨٠

هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير مرسلًا) [1] وذلك لأن الحديث المرسل من أقسام الحديث الضعيف عند المحدثين .

وقد قدر لهذا الحديث الشيوع ــ رغم ذلك ــ لتوظيفه فى الكلام عن حماية مبالغ فى تصورها من أبى طالب للرسول صلى الله عليه وسلم ليكون الحزن على فقد هذه الحماية عظيما ، وليقال : إن المعجزة كانت من دواعى هذا الحزن العظيم ، ولكن على العكس من ذلك تماما فإننا نتفق مع الرأى القائل بأن موت أبى طالب فى هذا الوقت المبكر ، ورغم ما كان يقوم به من دور ــ على قدر إمكانه ــ هو سبيل لتأكيد أن النصر الحقيقى إن هو إلا من عندَ الله وحده ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [2] وهذا المعنى العقائدى الجوهرى ما كان يغيب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول الدكتور البوطى فى (فقه السيرة) : « لو أن أباطالب بقى إلى جانب ابن أخيه يكلؤه ويحميه إلى أن تقوم الدولة الإسلامية فى المدينة وريثما ينجو الرسول من أذى المشركين وقبضتهم ، لكان فى ذلك ما قد يوهم أن أباطالب

---

(١) انظر هامش (فقه السيرة) للغزالى صفحة ١٣١ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٦٠ .

كان من وراء هذه الدعوة . وأنه هو الذى كان يدفعها إلى الأمام ويحميها بمكانته وسلطانه بين قومه ، وإن لم يظهر الإيمان بها والانضواء تحتها ، ولَجَاءَ من يطيل ويطنب فى بيان الحظ الحسن الذى تهيأ للرسول صلى الله عليه وسلم أثناء قيامه فى الدعوة بسبب حماية عمه له ، بينما لم يتهيأ هذا الحظ لغيره من المسلمين من حوله ، فأوذُوا وهو محفوظ الجانب وتعذبوا وهو مستريح البال .

« لقد قضت حكمة الله تعالى أن يفقد الرسول عمه أباطالب وزوجته خديجة بنت خويلد ، ويفقد من حوله من كان فى الظاهر حاميا له ومؤنسا ، حتى تتجلى حقيقتان هامتان :

أولاهما : أن الحماية والعناية والنصر ، إنما يأتى كل ذلك من الله — عز وجل — ولقد تعهد الله أن يعصم رسوله من المشركين والأعداء ، فسواء كان ثمة من يحميه من الناس أو لم يكن ، فهو معصوم من الناس وستبلغ دعوته منتهاها من النصر والتوفيق .

ثانيتهما : ليس معنى العصمة من الناس أن لا يرى منهم إيذاء أو عذابا أو اضطهاداً وإنما معنى العصمة التى تعهد بها الله — عز وجل — بقوله : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[1]

---

(١) سورة المائدة : من الآية ٦٧ .

العصمة من القتل ومن أى صد أو عدوان من شأنه إيقاف الدعوة الإسلامية » [1].

* * *

هذا عن الحماية وعن حديث (مانالت منى قريش ...) وشيوعه ـــ رغم ضعفه ـــ فى كتابات المعاصرين من المسلمين على اختلاف حظوظهم من العلم . ولكن نصيب الحديث الثالث أكبر من حيث الشهرة والشيوع ، وهو الحديث الخاص بالدعاء : (اللهم إليك أشكو ضعف قوتى) .. وقد ورد هذا الحديث بدون سند فى (السيرة) لابن إسحاق ، ولم يرد من بعد ذلك إلا مأخوذا عنها . ولم يصح هذا الحديث عند ابن سعد الذى أسقطه من أخبار رحلة الطائف فى كتابه (الطبقات الكبرى) كما لم يشر أىٌّ من البخارى ومسلم إلى ذلك الحديث فى الصحيحين ، وقد علق عليه الشيخ ناصر الدين الألبانى فى تحقيقه لكتاب (فقه السيرة) للشيخ الغزالى ، فقال : (حديث ضعيف ذكره ابن إسحاق بدون سند) كما سبق ذكره فى هامش سابق .

إن ابن إسحاق هو أول من ربط بين شروع الرسول صلى الله عليه وسلم فى الذهاب إلى الطائف من جهة ونتائج وفاة

---

(١) (فقه السيرة) للبوطى ـــ صفحة ١٠٦ .

عمه وزوجته من جهة أخرى وهو ربط غير منقول عن أحد قبله ، بل ذكره مرسلًا ، وعنه أخذ نفس الرأى ابن سعد فى (الطبقات الكبرى) ولكنه أضاف إضافة جديدة لم يتحدث عنها لا ابن إسحاق ولا ابن هشام ، وهى الإضافة الخاصة بتعرض الرسول صلى الله عليه وسلم للأذى الجسمانى ، والضرب بالحجارة ، وجرح قدميه وسيلان الدماء منهما .

ومن هذه المصادر الثلاثة توالى نقل المسلمين لأخبار الرحلة بهذا الشكل الذى يفيض أسى حتى يومنا هذا . وتحرر أثناء هذا النقل بعض المتأخرين من نصوص ابن إسحاق وابن هشام وابن سعد ، وأطلقوا لخيالهم العنان ، فمثلا فى (السيرة الحلبية) يقول صاحبها : إن أهل الطائف قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم :« اخرج من بلدنا والحق بمنجاتك من الأرض ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وقعدوا له صفين على طريقه ، فلما وصل صلى الله عليه وسلم بين الصفين جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا أرضخوهما بالحجارة ، حتى أدموا رجليه .. وكان صلى الله عليه وسلم إذا أزلقته الحجارة قعد إلى الأرض ، فيأخذون بعضديه فيقيمونه فإذا مشى رجموه ، وهم يضحكون » [1].

---

(١) (حقائق الإسراء والمعراج) ـــ صفحة ٢٢٣ .

ومنذ عام ١٩٤٢ م بدأ الحديث عن علاقة الإسراء والمعراج بهذه الأحزان فيما كتبه الأستاذ مصطفى الرفاعى اللبان ، وتوالت الكتابات حتى الآن لتأكيد هذا الرأى بشتى التعبيرات وباستجلاب الأدلة التصورية المحضة ، حتى استقر بدون مبرر علمي فى أن الحكمة من المعجزات إنما كان التسلية والترفيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه المعاناة .

* * *

وفات هؤلاء أن حكمة الإسراء والمعراج كحادثة خطيرة ، بل من أخطر الحوادث التى تعرض لها الرسول صلى الله عليه وسلم طوال حياته لابد أن تكون أهم وأخطر من مجرد التسلية والترفيه والسلوان ولا مانع من أن يكون السلوان قد اتفق عرضا مع دواعى الرحلة ، كانعكاس ثانوى إلى جانب الحكمة الأساسية من المعجزة ، تلك الحكمة التى يجب أن تصبح مثارا للاجتهاد عند المفكرين المسلمين ، ولابد وأن ينطلق البحث عنها من الآيتين الكريمتين اللتين تشيران إليها ، وهما قوله تعالى : ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ و ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ .

للأسف فإن قلائل من الناس من حاول استكناه هذه الحكمة قديما وحديثا،وسبق أن ذكرنا محاولات ابن إسحاق والرازى فى هذا السبيل ، وقد تناثرت إشارات من هذا الذى

حاولوه فى بعض التفاسير القديمة ، خصوصا عند تفسيرهم للآيات الكريمة السابقة . وكمثال لهذا المس اللطيف الهين ، غير المستفيض ، نذكر لطائف الإمام القشيرى فى شرح قوله تعالى : ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ﴾

قال : « كان تعريفه بالآيات ثم بالصفات ثم كشف بالذات . ويقال : من الآيات التى أراها له تلك الليلة أنه ليس كمثله — سبحانه — شىء فى جلاله وجماله ، وعزه وكبريائه ، ومجده وسنائه ، ثم أراه من آياته تلك الليلة ما عرف به — صلوات الله عليه — أنه ليس أحد من الخلائق مثله فى نبوته ورسالته وعلو حالته وجلال رتبته [1] وقال فى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ . « أى : (الآية) الكبرى وحذف الآية .. وهى تلك التى رآها فى هذه الليلة . ويقال : هى بقاؤه فى حالة لقائه ربه بوصف الصحو ، وحفظه حتى رآه » [2].

أما فى عصرنا هذا فلم يَخْلُ الأمر — بحمد الله — من علماء تنبهوا لعدم صحة الربط السابق بين الحزن (المبالغ فيه) والمعجزة ، فالدكتور عبدالحليم محمود — رحمه الله — شيخ

(١) (لطائف الإشارات) — صفحة ٣٣٤ / ٢ .

(٢) الجزء الثالث — صفحة ٤٨٤ / ٣ .

الأزهر الأسبق أعلن خلال حديث عن الإسراء والمعراج عام ١٩٧٥ م أن أحداث عام الحزن لم تكن السبب فى الإسراء بمحمد صلى الله عليه وسلم [1] ومن قبله كتب الشيخ سعد شاكر على عبدالعال مقالًا فى ملحق (منبر الإسلام) ـــ العدد ٧ ـــ السنة ٢٤ ـــ أكتوبر ١٩٦٦ م قال فيه على الخصوص :

« يعتقد كثير من الناس أن الإسراء والمعراج كانا ترويحا عن الرسول صلى الله عليه وسلم وتسلية له بسبب ما عاناه من مشقة وتعب ، وما صادفه من حزن وكآبة، وأغلب الظن أنه اعتقاد فيه شيء من الغفلة وضعف التأويل ، ذلك أن الترويح يكون بالوجدانيات التى يطرب لها الجسم ، وتستجيب لها العاطفة ، وتطرح ما وراءها من المضنيات والمتعبات ، والآية الكبرى خاصة لا تخاطب القلوب بقدر ما تخاطب العقول ، فهى عمل علمى عظيم يدفع بالعقل إلى أبعد آماد التفكير والتأمل ، ومثل هذا لا يكون ترويحا أو متعة بدنية أبداً ، بل هو إدراك عقلى شاق ، ليس فى قدرة أى عقل أن يصل إليه أو يسعى ولو إلى بعض ما فيه من أسرار الخلق والتكوين ، وهذا يجعلنى أعتقد أن هذه الآيات تقوية للإيمان

---

(١) (حقائق الإسراء والمعراج) صفحة ١٥٩ .

وتثبيت ، حتى يكون إيمانا بالدليل القائم على المشاهدة والاطلاع ، وإن اختلفت درجات الإدراك فيه » [1] .

ومما كتبه الشيخ (محمد الغزالي عن حكمة الإسراء قوله :
« الله — عز وجل — يتيح لرسله فرص الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته حتى يملأ قلوبهم ثقة فيه واستنادا إليه إذ يواجهون قوى الكفار المتألبة ويهاجمون سلطانهم القائم ، فقبل أن يرسل الله موسى شاء أن يريه عجائب قدرته ، فأمره أن يلقى عصاه ، قال : ﴿ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ. فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ. قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ. وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ. لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ [2] فلما ملأ قلبه إعجابا بمشاهدة هذه الآيات الكبرى قال له بعد : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [3]

---

(1) وقد أعادت المجلة نشر هذا الرأى فى العام التالى (١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م) — عدد رجب — صفحة ١٠٦ ، ١٠٧ من الملحق .
(٢) سورة طه : الآيات ١٩ — ٢٣ .
(٣) سورة طه — الآية ٢٤ .

... وقد علمت أن ثمرة الإسراء والمعراج إطلاع نبيه على هذه الآيات الكبرى ، وربما تقول : إن ذلك حدث بعد الإرسال إليه بقريب من اثنى عشر عاما على عكس ماوقع لموسى .. وهذا حق وسره ما أسلفنا بيانه من أن الخوارق فى سير المرسلين الأولين قصد بها قهر الأمم على الاقتناع بصدق النبوة ، فهى تدعيم لجانبهم أمام اتهام الخصوم بالادعاء ، وسيرة محمد صلى الله عليه وسلم فوق هذا المستوى » [١].

وهكذا كانت معجزة الإسراء والمعراج ـــ فى رأى الشيخ الغزالى ـــ فرصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم للاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرة الله ـــ تعالى ـــ حتى يمتلىء قلبه ثقة فيه واستنادا إليه فى مواجهته لقوى الكفر المتألبة من حوله ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ وهذا تنويه طيب إلى معنى كريم من معانى الحكمة من حادثة الإسراء والمعراج .

ويقول الدكتور مصطفى زيد فى مجلة (منبر الإسلام) سنة ١٩٦٧ م فى استدلالات آيات القرآن عن الإسراء والمعراج : « إن الله ـــ عز وجل ـــ لم يقل فيها ليرى من آياتنا ، وإنما قال:﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ﴾[٢] ليشير إلى أنه حين رأى ما رأى من آيات الله إنما كان بقدرة أكبر من قدرته ، قدرة أمده الله بها فى تلك الرحلة المباركة ليستطيع بواسطتها

(١) (فقه السيرة) للغزالى ـــ صفحتا ١٤١ ، ١٤٢ .

(٢) سورة الإسراء : من الآية ١ .

أن يرى ما أراد الله له أن يراه من آياته . ومن ثم جاء فى سورة النجم ضمن الآيات التى تتحدث عن المعراج : ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾فوصفت الآيات التى رآها صلى الله عليه وسلم بأنها من آيات كبرى لا يستطيع غيره أن يراها ، ولا يراها هو إلا إذا أراه الله إياها » [1] .

وفى نفس العدد من مجلة (منبر الإسلام) كتب الأستاذ ناصر محمد عطية مقالًا جيدا عن (الجوانب النفسية والروحية فى الإسراء والمعراج) كان مما جاء فيه قوله : « ولا شك أن أهم الجوانب فى هذه الرحلة أنها كانت درسا تربويا نفسيا لابد منه لمحمد صلى الله عليه وسلم حتى يواجه أعباء الرسالة ويتحمل مسئولياتها ويرفع رايتها ، ويقف كالجبل الأشم لا يتزعزع ولا يتزلزل أمام قوة الكفر . ومكايد الضلال ومكر الباطل وحتى لا يضطرب أمام هذه العواصف والمؤامرات » إلى أن قال : « وضع خطا عريضا تحت قوله تعالى : ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ فقد رأى محمد قدرة الله ، ورأى ملكوته ، وجنته وناره ، وأنبياءه ، ورسله ، وملائكته ، وشاهد

(١) سورة النجم : الآية ١٨ .

(٢) مجلة (منبر الإسلام) العدد ٧ / ٢٥ رجب ١٣٨٧ هـ / أكتوبر ١٩٦٧ م — الملحق : صفحة ١٣٩ .

عظمته ، ورحمته ، ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [1].

وفى (موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية) يقول الدكتور أحمد شلبى : « من الدروس المهمة المتصلة بالإسراء والمعراج أن الله — سبحانه وتعالى — أتاح للرسول — عليه السلام — بها فرصة أن يرى العوالم الكبرى ، فصغرت بذلك مكة فى نفسه ، وما بها من رجال وعتاد وماذا تكون مكة ومن بها بالقياس إلى هذا العالم الفسيح ؟ وإلى صاحب القوة الجبارة التى صنعت معجزة الإسراء والمعراج .

ومن الدروس كذلك وضع المسلمين قبل الهجرة فى بوتقة اختبار لتنقيتهم من المترددين قبل أن يبدأ الشوط التالى الذى سيكون حافلًا بالجهاد والتضحية بالمال والأهل والوطن بعد الهجرة إلى المدينة [2].

وفى سنة ١٩٧٥ م كتب فضيلة الشيخ على فريج حسنين مقالًا هاما فى مجلة (منبر الإسلام) بعنوان (الآية العظمى فى الإسراء والمعراج) قال فيه : « وأنت تقرأ فواتح سورة

---

(٢) المصدر نفسه : صفحتا ١٧٠ ، ١٧٢ والآيتان من سورة النجم رقما : ١٧ ، ١٨ .

(٢) (موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية) — صفحة ٢٤٢ / ١ .

الإسراء فلا تفرغ من الآية الأولى بمفردها حتى تقع فى قصة موسى والتوراة وبنى إسرائيل وكانت النفس تميل إلى تفصيل ما شاهده الرسول ــ عليه السلام ــ فى رحلة العجائب التى مثلت له ــ من هيئات الصالحين وأحوالهم ، ومن أحوال العاصين ، وما أعدَّ لهم ، كما روته الأخبار الصحيحة ، ولكن القرآن أجمل تلك الآيات على عظمتها إجمالًا وخلص سريعا إلى بيان الأهم » هذا الأهم كما يرى الشيخ فريج : « هو رسم الطريق وتوضيح الخطة والتحذير من المخالفة ، وبيان العاقبة ، وتحديد العقوبة ، فإن الشأن فى الحقيقة أعظم من هذا القصص ، لأن الدين كله ، وملك الإسلام أبد الدهر ، من محمد ــ عليه السلام ــ إلى يوم القيامة ، وهذا كُله ينطوى تحت الآيات التالية للآية السابقة ، ونستمع إلى ما يقول

القرآن : ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا. ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا . وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا. فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا . ثُمَّ

رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا. إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا . عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا. إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا . وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[1]

وإنه وإن كانت القصة تحكى حال بنى إسرائيل ، ولكنها فى الحقيقة تستهدفنا وتعنينا ، وهى تقصد إلى أن تقول لنا ـــ نحن المسلمين ـــ : إنكم خلفتم بنى إسرائيل فى الدين والملك وقد كان القوم على دين فضلهم الله به على العالمين ، وكانوا على ملك بلغ من شأنه فى عهد سليمان بن داود ـــ عليهما السلام ـــ : أنه (**لاينبغى لأحد من بعده**) وقد شد الله ملكهم وبقى محافظا على عهده معهم ، ورعايته إياهم

---

(١) سورة الإسراء : الآيات ٢ ـــ ١٠ .

ماحفظوا هم عهده ووفوا بميثاقه ، واستقاموا على طريقته ، فلما بدا لهم أن يضلوا السبيل ، ويخالفوا أمره ، ويخونوا أمانته بإهمال الشريعة ، ونبذ الدين واتباع الشهوات ، والإفساد فى الأرض ، رفع الله عنهم حمايته ، وسلبهم عنايته ، ووكلهم إلى أنفسهم الطاغية الباغية ، فداستهم الأمم ، وقهرتهم الدول ، وبعث الله عليهم المرة بعد المرة عبادا له أولى بأس شديد من البابليين والمصريين والفرس والروم ، فلم يزالوا بهم حتى أتوا على بنيانهم من القواعد ، فقوضوا دولتهم ، ونكسوا أعلامهم ومزقوهم شر ممزق ، وشردوهم فى الأرض لا وطن لهم مدى الحياة . فحاذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم ، فتستنوا فى الأمر سنتهم ، وتسيروا سيرتهم ، فإنكم إن فعلتم ذلك جرت عليكم سنة الله بما جرت عليهم ، وإنها لسنة ماضية بحقها ، قاهرة بعدلها ، لا تحابى خليلًا ، ولا تظلم فتيلا ، ولا يجد لها أحد من دون الله تحويلا ولا تبديلا ، وبهذا تلوح لنا الحكمة من الإسراء ، حيث جمع الله لرسوله العظيم فى ليلة العيد — عيد التشريفة الكبرى — جميع الأنبياء والمرسلين فى حفل استقبال عام ، حيث أسلموا له الزمام ، وقام فيهم مقام الإمام فى المسجد الأقصى المبارك ، وتحقق ميثاق الله المأخوذ على النبيين من أول الخليقة — بالإيمان بالرسالة ورسولها الخاتم ، وهو ما جاء من سورة آل عمران فى قوله تعالى :

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ (١).

وتم الاحتفال بختم النبوة والرسالة فى الأرض وتولية خاتم الرسل والأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم إمامة الدين وسلطانه تحت رعاية القرآن وجمع التراث الدينى كله إلى هذه الحوزه وتحت هذه الراية إلى يوم القيامة ، وإعلان ذلك فى الأرض والسماء على ملأ من الملائكة والرسل والأنبياء ، وإيذان بنقل الأمر من بيت إسرائيل إلى بيت إسماعيل ، ولولا أن القصد هو هذه المبايعة التى ضمت تراثهم إلى حوزته وجمعت كلمتهم تحت رايته ، لما تجلت لنا فى هذا الوضوح حكمة الإسراء إلى المسجد الأقصى ، ولكان عروجه من المسجد الحرام بمكة أقرب وأولى » (٢) .

وفى سنة ١٩٧٧ م كتب الأستاذ أحمد زين فى نفس المجلة إيماءات إلى هذه الحكمة ، فبعد أن قال : « لو لم تكن هناك

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٨١ .

(٢) مجلة (منبر الإسلام) العدد السابع رجب (١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م) ــ الملحق : صفحات ٧٤ ــ ٧٧ .

غاية للإسراء والمعراج غير فرض الصلاة لكان فى ذلك ما يكفى رضاء من الله على المسلمين ورسولهم » قال : « ولكن الرحلة كانت لها غايات أخرى أثبتها السميع البصير فى آية الإسراء : ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ فأرى الله ــ تبارك وتعالى ــ رسوله المصطفى فى كربته مايزيل الكرب ويشحذ العزم ويؤهله لمراحل الدعوة القادمة .. أراه مكانته العليا التى أعدها له .. وأراه آيات من ملكوته العظيم ، وكشفت الرحلة لرسول الله معانى كثيرة عن فضائل عديدة لها أثرها فى الإسلام والدعوة إليه .. واستهدفت الرحلة غاية عظيمة وهى وحدة الأماكن المقدسة واتحاد النبيين والمرسلين على الإسلام ورب الإسلام » إلى أن قال :

« وبعد أن رأى مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات طمأنه إلى نصر الله وقدرته ، وأنه على الحق المبين .. فعاد إلى قومه بأقوى عزم وتهيأ لرحلة الهجرة وللدعوة والجهاد والفتح ، فكانت السنوات التالية للإسراء سنوات مجد الإسلام وتمام نزول أحكامه .. ونشره على العالمين » [١] .

وتطرق فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى إلى الحديث

---

(١) (منبر الإسلام) ــ عدد رجب ١٣٩٧ هـ / يونيو ١٩٧٧ م ــ الملحق : صفحة ٨٢ .

عن حكمة الإسراء والمعراج فأجملها فى قوله : « هى معجزة خرق الله فيها لرسوله قوانين الأرض وقوانين السماء : .

ـــ ليريه من آياته الكبرى .

ـــ ويثبته .

ـــ ويفرض عليه أقدس العبادات وأقربها إلى الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ وهى الصلاة » [1].

* * *

ولكن المؤسف رغم كل هذه المحاولات أن تظل السيادة للادعاء المتسرع الواهم بأن الحكمة من الإسراء والمعراج كانت أساسا الترويح عن الرسول صلى الله عليه وسلم والترفيه عنه وتسليته ، وما كان لذلك الادعاء أن يسود على هذا النحو لولا تلك الأحاديث الضعيفة كلها أو الموضوعة التى لم ينفع الأمة تنويه بعض علمائنا إلى ضعفها أو وضعها وذلك أثر من آثار الجمود الفكرى ومرض النقل دون تحقيق الذى يخطىء من يظن أننا نستطيع به أن نواجه عناصر تخلفنا وأن نَعْبُرَ أزمتنا الراهنة .

---

(١) (معجزة القرآن) ـــ الجزء الثانى ـــ صفحة ١٣٩ .

طريق للحقيقة

إن كثرة الأحاديث والآراء فى شأن هذه الحادثة المعجزة كانت قد أصبحت مشكلة عويصة منذ زمن بعيد ولذلك عندما تعرض لها الحافظ ابن كثير فى القرن الثامن لم يجد بدًّا من ذكر عدد كبير من أحاديث الإسراء والمعراج ، ولكنه أشار إلى طريق لمعرفة الحقيقة وسط هذه الأحاديث كلها ، فقال :

« وإذا حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث : صحيحها وحسنها وضعيفها يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس ، وأنه مرة واحدة وإن اختلفت عبارات الرواة فى أدائه ، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه ، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء ـــ عليهم السلام ـــ ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة فأثبت إسراءات

متعددة ، فقد أبعد وأغرب ، وهرب إلى غير مهرب ، ولم يتحصل على مطلب » [1] .

ومن المهم أن نلاحظ هنا أن القرآن الكريم لم يقف كثيرا عند هذه الحادثة ، ولم يتطرق إلى تفاصيلها ، ربما لأنها خاصة بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم فى المقام الأول،وإسهاب القرآن إنما يكون فيما يختص مباشرة بالعقائد الإسلامية المدعو إليها ، كإثبات وجود الله ، ووحدانيته ، وقدرته والتذكير بالآخرة ، وتنظيم شئون المجتمع المسلم ، وعلاقات أفراده ، وعلاقاته بغيره ، لأن كل ذلك يشكل الأساس الموضوعى العام للإسلام ككل . وإنما حادثة الإسراء والمعراج التى نعتقد فى خصوصيتها الشديدة بالرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن ليفيد المسلمين أو الإسلام كثيرا أن يسهب القرآن الكريم فى سرد تفاصيلها رغم أهميتها القصوى فى حياة الرسول الكريم نفسه .

ومع ذلك فإن أبينا إلا البحث عن تفصيلات هذه الرحلة العظيمة فلن نجد غير تلك الأحاديث النبوية الشريفة ، التى أرشدنا ابن كثير إلى طريقة الوقوف على مابها من حقائق دون الأباطيل ، وقد بنى الشيخ أبو على الفضل بن حسن الطبرسى

---

(١) (تفسير ابن كثير) — صفحتا ٢٧٦ ، ٢٧٧ / ٤ — طبعة دار الأندلس — بيروت .

على منهج ابن كثير فى المقابلة بين الأحاديث قانونا صالحا لعملية الفرز والموازنة بين الروايات ، نشره فى (مجمع البيان فى تفسير القرآن) الجزء الخامس ــ طبعة مكتبة الحياة ــ بيروت ، فقال :

« وقد وردت روايات كثيرة فى قصة المعراج ، فى عروج نبينا صلى الله عليه وسلم رواه كثير من الصحابة ، مثل ابن عباس وابن مسعود ، وأنس ، وجابر بن عبد الله وحذيفة ، وعائشة ، وأم هانىء ، وغيرهم عن النبى صلى الله عليه وسلم وزاد بعضهم ونقص بعض ، وتنقسم جملتها إلى أربعة أوجه :

أحدها : مايقطع على صحته لتواتر الأخبار به ، وإحاطة العلم بصحته .

ثانيها : ماورد فى ذلك مما تجوزه العقول ، ولاتأباه الأصول ، فنحن نجوزه، ثم نقطع على أن ذلك كان فى يقظته دون منامه .

ثالثها : مايكون ظاهره مخالفا لبعض الأصول ، إلا أنه يمكن تأويله على وجه يوافق المعقول ، فالأولى أن نؤوله على مايطابق الحق .

رابعها : مالايصح ظاهره ، ولايمكن تأويله إلا على التعسف البعيد ، فالأولى ألا نقبله .

ــ فأما الأول المقطوع به : فهو أنه أسرى به على الجملة .

ـــ وأما الثانى : فمنه ماروى أنه طاف فى السموات ، ورأى الأنبياء ، والعرش ، وسدرة المنتهى ، والجنة والنار ، ونحو ذلك .

ـــ وأما الثالث : فنحو ماروى أنه رأى أقواما فى الجنة يتنعمون فيها ، وقوما فى النار يعذبون فيها ، فيحمل على أنه رأى صفتهم وأسماءهم .

ـــ وأما الرابع : فنحو ماروى أنه صلى الله عليه وسلم كلم الله ـــ سبحانه ـــ جهرة ، وقعد معه على سريره ، ونحو ذلك مما يوجب ظاهره التشبيه ، والله سبحانه يتقدس عن ذلك ، كذلك ماروى أنه شق بطنه وغسله لأنه صلى الله عليه وسلم كا طاهراً مطهراً من كل سوء وعيب ، وكيف يطهر القلب ومافيه من الاعتقاد بالماء ؟ » .

والآن فلعل قانون الشيخ أبى الفضل هذا يفيدنا فى استكشاف طريق للحقيقة فى هذه الحادثة ، التى نعتقد ـــ والله العلم ـــ أن من الحقيقة فيها مايلى :

١ ـــ أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ليلًا .

٢ ـــ مرة واحدة على الأرجح .

٣ ـــ فى يقظته .

٤ ـــ وبالروح والجسد .

٥ ـــ قبل الهجرة بعام .

٦ ـــ بوسيلة البراق التى لايعلم حقيقتها إلا الله .

٧ ـــ إلى بيت المقدس .

٨ ـــ ثم عرج به إلى السموات سماء فسماء .

٩ ـــ حتى بلغ سدرة المنتهى .

١٠ ـــ حيث فرضت عليه وعلى أمته الصلاة .

١١ ـــ ثم عاد إلى مكة .

١٢ ـــ فى نفس الليلة .

١٣ ـــ فأخبر الناس صباحاً بفضل الله عليه .

١٤ ـــ فكذبه المشركون وعلى رأسهم أبوجهل .

١٥ ـــ وصدقه أبو بكر فى إيمان فائق ، بينما ارتد بعض ضعفاء الإيمان من المسلمين .

١٦ ـــ وقد أوجز القرآن الكريم جدا فى ذكر هذه المعجزة وهذا منهج ينبغى التأسى به .

هذا مما أعتقده فى حقيقة الإسراء والمعراج ، وقد تكون حقيقة ناقصة هنا ، غير أنى لاأحب أن تكون الخيالات كمالة لها .

وأخيرا أتوجه إلى الله ــ سبحانه وتعالى ــ بالحمد والشكر والثناء على ما هدانى إليه فى هذا الكتاب ، فإن كنت قد وفقت فمن الله وحده ، وله الفضل والمنة ، وإن كنت قد أخطأت أو قصرت فمن نفسى أستغفر لها ربى وما أبرئها ، إن النفس لأمّارة بالسوء . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

قائمــــة المراجــــع

بترتيب ورودها فى الكتــاب

* أولا : الكتب والمجلدات :

١ ــ محمد ناصر الدين الألبانى : (الفتح الكبير ــ صحيح الجامع الصغير وزيادته) ــ المكتب الإسلامى ــ بيروت ــ الطبعة الثانية ــ ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .

٢ ــ دكتور / محمد سعيد رمضان البوطى : (فقه السيرة) ــ دار الفكر ــ بيروت ــ الطبعة السابعة ــ ١٣٩٨ هـ ــ / ١٩٧٨م .

٣ ــ علاء الدين على المتقى بن حسام الدين الهندى البرهان فورى : (كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال) ــ ضبطه وفسرغريبه الشيخ بكرى حيانى ، وصححه ووضع فهارسه ومفتاحه الشيخ صفوت السقا ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ الطبعة الخامسة ــ ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

٤ ــ محمود أبو رية : (أضواء على السنة المحمدية ــ أو دفاع

عن الحديث) ـ دار المعارف بمصر ـ الطبعة الرابعة ـ ١٩٧٦ م

٥ ـ **أبو زكريا محيى الدين بن شرف النووى** : (شرح صحيح مسلم) ـ دار الفتح الإسلامى بالاسكندرية / المكتب الثقافى بالقاهرة ـ بدون تاريخ .

٦ ـ **د . أحمد عمر هاشم** : (السنة النبوية وعلومها ـ دراسة تحليلية للسنة النبوية وعلومها ودفاع عن السنة ورد لشبهات المستشرقين وأعداء الإسلام) ـ الفتح للإعلام العربى ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٩٨٥م .

٧ ـ **محمد ناصر الدين الألبانى** : (تخريج أحاديث شرح العقيدة الطحاوية) ـ المكتب الإسلامى ـ بيروت ـ الطبعة الثامنة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م .

٨ ـ **أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير** : (تفسير القرآن العظيم) ـ دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ الطبعة الثالثة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م .

٩ ـ **عبد الله حجاج** : (الإسراء والمعراج ـ مجردا ومرتبا أحاديثه من فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى) ـ مكتبة التراث الإسلامى ـ القاهرة ـ ١٩٨٤ م .

١٠ ــ **أحمد بن على بن حجر العسقلانى** : (فتح البارى بشرح صحيح الإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى) ــ تحقيق محب الدين الخطيب ــ دار الريان للتراث / المكتبة السلفية ــ القاهرة ــ الطبعة الثالثة ــ ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧م .

١١ ــ **محمد متولى الشعراوى** : (معجزة القرآن) ــ الجزء الثانى ــ سلسلة كتاب اليوم ــ مؤسسة أخبار اليوم ــ القاهرة ــ ١٩٨٠ م .

١٢ ــ **أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى** : (صحيح البخارى ــ بشرح السندى) ــ دار إحياء الكتب العربية ــ القاهرة ــ بدون تاريخ .

١٣ ــ **شمس الدين محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية** : (زاد المعاد فى هدى خير العباد) ــ تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط ــ مؤسسة الرسالة (بيروت) / مكتبة المنار الإسلامية (الكويت) ــ الطبعة الثامنة ــ ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .

١٤ ــ **جلال الدين عبد الرحمن السيوطى** : (الآية الكبرى فى شرح قصة الإسراء) ــ تحقيق محيى الدين مستو ــ دار ابن كثير (دمشق) / مكتبة دار التراث (المدينة المنورة) ــ الطبعة الثانية ــ ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م .

١٥ ــ **أبو إسحاق النعمانى** : (السراج الوهاج فى الإسراء والمعراج) ــ تحقيق عبد القادر أحمد عطا ــ مكتبة القرآن ــ القاهرة ــ بدون تاريخ .

١٦ ــ **د . أحمد شلبى** : (موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية) ــ مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرةــ الطبعة الحادية عشرة ــ ١٩٨٤ م .

١٧ ــ **عبد الحميد جودة السحار** : (الإسراء والمعراج) ــ مكتبة مصر ــ القاهرة ــ بدون تاريخ .

١٨ ــ **سيد قطب** : (فى ظلال القرآن) ــ دار الشروق ــ القاهرة / بيروت ــ الطبعة التاسعة ١٩٨٠ م .

١٩ ــ **محمد متولى الشعراوى** : (المعجزة الكبرى : الإسراء والمعراج) ــ سلسلة مكتبة الشعراوى ــ مؤسسة أخبار اليوم ــ القاهرة ــ ١٩٩٠ م .

٢٠ ــ **محمد الغزالى** : (فقه السيرة) ــ دار الريان للتراث ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى ــ ١٩٨٧ م .

٢١ ــ **محمد ناصر الدين الألبانى** : (سلسلة الأحاديث الصحيحة وشىء من فقهها) ــ المكتب الإسلامى ــ بيروت ــ بدون تاريخ .

٢٢ ــ **محمد ناصر الدين الألبانى** : (دفاع عن الحديث

النبوى والسيرة ـــ فى الرد على جهالات الدكتور البوطى فى كتابه فقه السيرة) ـــ دار الأرقم ـــ مصر ـــ بدون تاريخ .

٢٣ ـــ **خير الدين الزركلى** : (الأعلام ـــ قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين) ـــ دار العلم للملايين ـــ بيروت ـــ الطبعة الخامسة ـــ ١٩٨٠ م .

٢٤ ـــ **أبو محمد عبد الملك بن هشام** : (سيرة النبى صلى الله عليه وسلم شرح محمد محيى الدين عبد الحميد ـــ دار الهداية ـــ القاهرة ـــ بدون تاريخ .

٢٥ ـــ **سعيد محمد حسن** :(حقائق الإسراء والمعراج) ـــ مؤسسة روز اليوسف ـــ القاهرة ـــ ١٩٧٦ م .

٢٦ ـــ **أبو بكر ابن العربى محمد بن عبد الله** : (أحكام القرآن) ـــ دار الجيل ـــ بيروت ـــ ١٩٨٧ م .

٢٧ ـــ **أبو عبد الله القرطبى محمد بن أحمد بن أبى بكر** : (الجامع لأحكام القرآن)ـــ دار الغد العربى ـــ القاهرة ـــ ١٩٩٠ م .

٢٨ ـــ **أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير** : (البداية والنهاية)ـــ تحقيق : د : أحمد أبو ملحم ، ود : على نجيب ، وفؤاد السيد ، ومهدى ناصر الدين ، وعلى عبد الساتر ـــ دار

الكتب العلمية ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى ــ ١٩٨٥ م .

٢٩ ــ **محمد أمين جبر** : (الإسراء والمعراج : قراءة وثيقة ورؤيا جديدة) ــ القاهرة ــ ١٩٨٤ م .

٣٠ ــ **محمد فهمى عبد الوهاب** : (أسرار الإسراء والمعراج جسدا وروحا) ــ دار الاعتصام ــ القاهرة ــ ــ١٩٧٩ م .

٣١ ــ **أبو القاسم عبد الكريم القشيرى** : (لطائف الإشارات : تفسير صوفى كامل للقرآن الكريم) ــ تحقيق د . إبراهيم بسيونى ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ــ طبعة ثانية ــ ١٩٨٠ م .

* * *

★ ثانيا : المقالات والدوريات :

١ ــ **د . على حسن عبد القادر** : (المعراج وأثره فى الأدب الرمزى) ــ مقال بملحق مجلة (منبر الإسلام) المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر ــ العدد ــ ٧ ــ السنة ٢٥ ــ رجب ١٣٨٧ هـ / أكتوبر ١٩٦٧ م .

٢ ــ **محمد محمد السباعى الديب** : مقال بملحق مجلة منبر

الإسلام ــ عدد رجب ١٣٨٧ هـ / أكتوبر ١٩٦٧ م .

٣ ــ **الشيخ الطنطاوى أحمد عمر**: مقال بملحق مجلة (منبر الإسلام) ــ عدد رجب ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

٤ ــ **الشيخ محمود وفا هاشم** : (رحلة إلى السماء) مقال بملحق مجلة منبر الإسلام ــ عدد رجب ١٣٨٧ هـ / أكتوبر ١٩٦٧ م .

٥ ــ **أحمد بهجت** : (صندوق الدنيا) ــ باب يومى بجريدة الأهرام القاهرية ــ يوم ٢٢ فبراير ١٩٩٠ م .

٦ ــ **الشيخ على فريج حسنين** : (الآية العظمى فى الإسراء والمعراج) ــ مقال بملحق مجلة (منبر الإسلام) ــ عدد رجب ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .

٧ ــ **عبد المعطى عبادة** : (بين الإسراء المعراج ومنطق العلم الحديث) ــ مقال بملحق مجلة (منبر الإسلام) ــ عدد رجب ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .

٨ ــ **الشيخ عبد الحسيب طه** : مقال بملحق مجلة (منبر الإسلام) ــ عدد رجب ١٣٨٧ هـ / أكتوبر ١٩٦٧ م .

٩ ــ **الشيخ عبد الحميد بلبع** : مقال بملحق مجلة (منبر الإسلام) ــ عدد رجب ١٣٩٢ هـ / أغسطس ١٩٧٢ م .

١٠ ــ **د . عبد المنعم سيد حسن** : مقال بملحق مجلة (منبر الإسلام) ــ عدد رجب ١٣٩٧ هـ / يونيو ١٩٧٧ م .

١١ ــ **أحمد زين** : مقال بملحق مجلة (منبر الإسلام) ــ عدد رجب ١٣٩٧ هـ / يونيو ١٩٧٧ م .

الفهـــرس

هذا الكتاب

﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾

لقد كانت معجزة الإسراء والمعراج بمحمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى أول القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، ثم عروجه ﷺ إلى السموات العلا ، إلى سدرة المنتهى، إلى حيث شاء الله القادر - كان ذلك - مثارًا لانطلاق الأقلام وتسابق الأقلام ، وانفساح مجال الخيالات لتضع فى ذلك ما تزينه الأهواء ولو كان خارجًا عن النصوص الصحيحة الثابتة ، ويتمثل ذلك فى كتاب ابن عباس الذى انتشر بين العامة على أوسع نطاق ، واستغل المستشرقون وأعداء الإسلام هذا الكتاب لتحقيق أهدافهم ، فشجعوا على انتشاره بشتى الوسائل .

وهذا الكتاب يناقش فى هدوء وحيدة علمية تامة معجزة الإسراء والمعراج، وما راج فى هذا الصدد من أخبار لا تثبت أمام مقاييس البحث العلمى السليم فى سنة رسول الله ﷺ ، ليخرج للقارىء بدراسة موضوعية تجلو غياهب الظلمات أمام العيون المتطلعة للحقيقة . . . والحقيقة فقط . . . ﴿ مازاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾

والله من وراء القصد ، وهو يهدى السبيل .

الناشـــر



الدار المصرية اللبنانية — طباعة • نشر • توزيع

١٦ شارع عبدالخالق ثروت – تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ – ٣٩٣٦٧٤٣ – فاكس: ٣٩٠٩٦١٨ – برقياً: دار شادو – ص.ب: ٢٠٢٢ – القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH — PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

16 ABD EL KHALEK SARWAT St, P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO